المكتبة الأثيرية للكلاسيكيات المسيحية

حياة الإنسان المسيحي

جون كالفن

حياة الإنسان المسيحي

جون كالفن

طبعة أولى

جميع حقوق الطبع محفوظة فلا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب،
أو أي جزء منه، أو تخزينة في نطاق استعادة المعلومات أو نقلها،
أو استنساخه بأي شكل من الأشكال بدون إذن خطي مسبق من
الناشر.

المكتبة الأثيرية للكلاسيكيات المسيحية

الكتاب: حياة الإنسان المسيحي

الكاتب: جون كالفن

النّاشِر: Grand Rapids, MI: Christian Classics Ethereal Library

الموضوعات: الطوائف المسيحية

البروتستانتية

ما بعد الإصلاح

طوائف بروتستانتية أخرى

الكنائس المصلحة أو الكالفينية

إخراج فنّي وتجهيزات الطباعة، و تصميم الغلاف: د. نصرالله زكريا

رقم الإيداع: / ٢٠٢٢

في هذا الكتاب

الموضوع	ص
مقدمة	٧
نظرة تحليليّة	٩
الفصل الأول: حياة الإنسان المسيحي. كيف يحثنا عليها الكتاب المقدس	١٥
الفصل الثاني: جملة الحياة المسيحية: إنكار الذات	٢٣
الفصل الثالث: حمل الصليب، جزء من إنكار الذات	٤١
الفصل الرابع: تأمل في الحياة الآخرة	٥٥
الفصل الخامس: كيف ينبغي أن نستخدم الحياة الحاضرة وما تتيحه من معونة؟	٦٥

المكتبة الأثيرية للكلاسيكيات المسيحية

هذا الملف في أصله باللغة الإنجليزية (PDF) مأخوذ من المكتبة الأثيرية للكلاسيكيات المسيحية، www.ccel.org. وتتمثل مهمة هذه المكتبة في إتاحة الكتب المسيحية الكلاسيكية للعالم.

- هذا الكتاب متوفر بصيغة PDF و HTML وصيغ أخرى. انظر

http://www.ccel.org/ccel/calvin/chr_life.html.

- ناقش هذا الكتاب عبر الإنترنت على

http://www.ccel.org/node/2804.

توفر المكتبة الأثيرية للكلاسيكيات المسيحية (CCEL) أقراصًا مدمجة للأدب المسيحي الكلاسيكي في جميع أنحاء العالم عبر الويب وعبر الأقراص المدمجة (CDs). لقد وزعنا الآلاف من هذه الأقراص المدمجة مجانًا في البلدان النامية. إذا كنت في دولة نامية وترغب في الحصول على قرص مدمج مجاني، الرجاء إرسال طلب عبر البريد الإلكتروني على cd-request@ccel.org.

المكتبة الأثيرية للكلاسيكيات المسيحية هي منظمة غير ربحية تدعم نفسها بنفسها في كلية كالفن (Calvin College). إذا كنت ترغب في التبرع بوقتك أو أموالك لدعم المكتبة الأثيرية للكلاسيكيات المسيحية، يرجى زيارة الموقع الإلكتروني http://www.ccel.org/give.

هذا الملف محمي بحقوق الطبع والنشر للمكتبة الأثيرية للكلاسيكيات

المسيحية. يجوز نسخه مجانًا لأغراض غير تجارية طالما لم يتم تعديلها. جميع الحقوق الأخرى محفوظة. مطلوب إذن كتابي للاستخدام التجاري.

تمت الاستعانة بالترجمة العربية لكتاب جون كالفن، أسس الدين المسيحي بإذن خاص من الناشر.

حياة الإنسان المسيحي

جون كالفن

(مقتبس من الفصول السادس وحتى العاشر من
الكتاب الثالث من أسس الدين المسيحي)

يتناول هذا الكتاب حياة الإنسان المسيحي. وتم ترتيب فصوله الخمسة بحيث يمكن تصنيفها تحت فكرتين رئيسيتين.

الفكرة الأولى، والتي يجب اعتبارها نقطة معترف بها عالميًا، هي أنه لا يوجد إنسان مسيحي لا يشعر ببعض المحبة الخاصة تجاه البر (الفصل الأول). الفكرة الثانية، تتعلق بالمعيار الذي يجب على كل إنسان أن ينظم حياته بموجبه. وعلى الرغم من أنه يبدو أن هذه الفكرة تُناقَش فقط في الفصل الثاني، إلا أن الفصول الثلاثة التالية تشير إليها أيضًا. وتُظهر هذه الفكرة أن على المسيحي واجبات يجب أن يقوم بها. أولاً، هو يحتاج إلى أكبر قدر من الصبر لأن حفظ الحياة أمر شاق للغاية. ثم يتناول الفصل الثالث بشكل واضح فائدة الصليب، ويدعو الفصل الرابع إلى التأمل في الحياة الآخرة. أخيرًا، يُظهر الفصل الخامس بوضوح، ويقود بدرجة كبيرة إلى هذه الغاية، كيف يجب أن نستخدم هذه الحياة ووسائل الراحة الخاصة بها دون إساءة استخدامها.

حياة الإنسان المسيحي

نظرة تحليليّة

الفصل الأول: حياة الإنسان المسيحي. كيف يحثنا عليها الكتاب المقدس

١. العلاقة بين هذا الفصل وعقيدة التجديد. ضرورة العقيدة المتعلقة بالحياة المسيحية. إيجاز لهذا التعليم. الطريقة التي سيتم بها تناول هذا التعليم. سهولة وبساطة النظام الأخلاقي في الكتاب المقدس.

٢. هناك جانبان رئيسيان لهذا التعليم: الأول، القداسة الشخصية. ١. لأن الله قدوس. ٢. بسبب شركتنا مع قديسيه.

٣. الجانب الثاني، وهو يتعلق بفدائنا. النظام الأخلاقي الرائع للكتاب المقدس. خمس حوافز أو نصائح خاصة للحياة مسيحية.

٤. المسيحيون غير الحقيقيين الذين يقاومون هذه الحياة يُوَبَخون ١. إنهم لم يتعلموا المسيح حقًا. ٢. ليس الإنجيل هو دليل أقوالهم أو أفعالهم. ٣. لا يقتدون بالمسيح السيد. ٤. يفصلون الروح عن كلمته.

٥. لا ينبغي على المسيحيين أن ييأسوا: بشرط ١. يأخذون كلمة الله كمرشد لهم. ٢. ينمون في حياة البر بأمانة. ٣. يسلكون بحسب طاقتهم في طرق الرب. ٤. يحرزون بعض التقدم. ٥. يثابرون.

الفصل الثاني: جملة الحياة المسيحية: إنكار الذات

١. النظر في التقسيم العام الثاني فيما يتعلق بالحياة المسيحية. بدايتها وخلاصتها. إنكار الذات له شقين. الأول، نحن لسنا ملك أنفسنا. فيما يتعلق بكلٍ من الثمر والاستخدام. إنكار الذات غير معروف لدى الفلاسفة، الذين وضعوا سلطة المنطق فوق سلطة الروح القدس.

٢. ثانيًا، بما أننا لسنا ملك لأنفسنا، يجب أن نطلب مجد الله ونطيع مشيئته. إنكار الذات هو أمر موصى به لتلاميذ المسيح. من يهمله مخدوعًا بالكبرياء أو الرياء، يندفع إلى الهلاك.

٣. ثلاثة أمور ينبغي اتباعها وأمران ينبغي تجنبهما في الحياة. الفجور والشهوات العالمية يجب تجنبها. التعقل والبر والتقوى الواجب اتباعها. الحافز للسلوك الصحيح.

٤. إنكار الذات هو خلاصة عقيدة بولس. صعوبة إنكار الذات. صفات فينا تجعله صعبًا. علاج لهذه الصفات. ١. تلجيم الطمع. ٢. تبني التواضع. ٣. تبني الصدق مع النفس. ٤. الحفاظ على المحبة المتبادلة ٥. تنمية عدم المبالغة في تقدير الذات بأمانة.

٥. تعزيز النفع الذي يعود على أقربائنا. إنكار الذات هنا ضروري للغاية، ولكنه الأكثر صعوبة. هنا علاج مزدوج. ١. النعم الممنوحة لنا هي للمنفعة المشتركة للكنيسة. ٢. يجب أن نفعل كل ما في وسعنا من أجل القريب. ويتم شرح ذلك من خلال التشبيه بأعضاء الجسم البشري. يتأسس واجب المحبة هذا على الوصية الإلهية.

٦. يجب على المحبة أن تتحلى بالصبر واللطف. يجب أن ننظر إلى صورة الله في أقربائنا، ولا سيما في أولئك الذين ينتمون إلى بيت الإيمان. التفنيد الرباعي الذي يدحض كل الاعتراضات. دحض اعتراض شائع.

٧. لا يمكن أن توجد الحياة المسيحية دون محبة. علاج الرذائل التي تتعارض مع المحبة. ١. الرحمة. ٢. التواضع. ٣. عدم المبالغة في تقدير الذات ٤. الاجتهاد. ٥. المثابرة.

٨. إنكار الذات تجاه الله يجب أن يؤدي إلى رباطة الجأش والاحتمال. ١. نخضع دائما لله. ٢. يجب أن نتجنب الجشع والطمع. ٣. يجب أن نتوقع كل الازدهار من بركة الله، والاعتماد عليها كليًا.

٩. لا ينبغي أن نرغب في الثروة أو الكرامة دون البركة الإلهية، ولا نتبع أساليب الأشرار. يجب أن نلقي كل همنا على الله، ولا نحسد الآخرين أبدًا على رخاءهم.

١٠. يجب أن نلزم أنفسنا بالكامل لله. ضرورة هذه العقيدة. تصرفات مختلفة عند وقوع البلاء. فساد وسوء تصرف الوثنيين إزاء الشدائد.

الفصل الثالث: حمل الصليب، جزء من إنكار الذات.

١. ما هو الصليب. بواسطة من وعلى من ولأي سبب قد فُرِض. ضرورته وكرامته.

٢. ضرورة الصليب. ١. يجعلنا نتضع في كبرياءنا. ٢. يجعلنا نطلب المساعدة

من الله. داود كمثال. ٣. يعطينا أن نختبر حضور الله.

٣. استخدامات متعددة للصليب. ١. ينتج الصبر والرجاء والثقة الراسخة بالله، ويمنحنا النصرة والمثابرة. الإيمان الذي لا يقهر.

٤. ٢. يدربنا على الطاعة. إبراهيم كمثال. مدى فائدة هذا التدريب.

٥. الصليب ضروري لقمع شهوات الجسد. يتم تصوير هذا من خلال تشبيه مناسب. أشكال مختلفة من الصليب.

٦. ٣. الله يسمح بضعفاتنا ويصحح أخطاء الماضي ليبقينا في طاعة. يتم تأكيد ذلك بواسطة مقطع كتابي لسليمان والرسول بولس.

٧. تعزية استثنائية تحت الصليب عندما نعاني من الاضطهاد من أجل البر. بعض أجزاء من هذا العزاء.

٨. هذا الشكل من الصليب هو الأنسب للمؤمنين، ويجب أن يُحمل طوعا وبفرح. هذه البهجة ليست مرحًا بلا إحساس، لكن بينما نئن تحت العبء، ننتظر الرب بصبر.

٩. وصفا لهذا الصراع. بخلاف غرور الفلاسفة. يتم شرحه من خلال سلطان ومثال المسيح.

١٠. البرهنة على ذلك من خلال الشهادة والخبرة الموحدة للمختارين. أيضًا من خلال المثال الخاص للرسول بطرس. طبيعة الصبر المطلوب منا.

١١. التمييز بين صبر المسيحيين والفلاسفة. النوع الأخير يدعي أنه ضرورة لا

يمكن مقاومتها. النوع الأول يحافظ على بر الله واهتمامه بسلامتنا. شرح كامل لهذا الاختلاف.

الفصل الرابع: تأمل في الحياة الآخرة

١. قصد الله من الشدائد التي يمر بها شعبه. ١. تعويدنا على ازدراء الحياة الحاضرة. حبنا المفتون بها. استخدام الآلام كعلاج. ٢. يقودنا إلى التطلع إلى السماء.

٢. إن الحب المفرط للحياة الحاضرة يمنعنا من التطلع إلى الحياة الآخرة على النحو الواجب. ومن هنا تأتي مساوئ الرخاء. عمى الحكم البشري. فلسفتنا عن بُطل الحياة تنبع فقط من التأثير اللحظي. ضرورة الصليب.

٣. الحياة الحاضرة دليل على النعمة الالهية لشعبه. وبالتالي، لا ينبغي كراهيتها. على العكس من ذلك، ينبغي أن تدعونا للشكر. إكليل النصر في السماء بعد العناء على الأرض.

٤. كيفية تحمل عناء الحياة الحاضرة. تقدير المؤمن للحياة. مقارنة بين الحاضر والحياة المستقبلية. إلى أي مدى ينبغي كره الحياة الحالية.

٥. لا يجب على المسيحيين أن يرتجفوا من خوف الموت. سببان. اعتراض. إجابه. أسباب أخرى.

٦. أسباب مستمرة. خاتمة.

الفصل الخامس: كيف ينبغي أن نستخدم الحياة الحاضرة وما تتيحه من معونة

١. ضرورة هذه العقيدة. استخدام خيرات الحياة الحاضرة. يجب تجنب التطرف. ١. التقشف المفرط. ٢. أهواء جسدية وشهوات.

٢. الله، بخلقه للكثير من النعم، يشبع ليس فقط حاجاتنا الضرورية، بل أيضًا راحتنا وسرورنا. تأكيد من فقرة كتابية من المزامير ومن الخبرة.

٣. وبالتالي، ينبغي تجنب التقشف المفرط، وكذلك أيضًا شهوة الجسد. ١. تدعونا الخليقة إلى معرفة الخالق ومحبته وإكرامه. ٢. هذا لا يفعله الأشرار الذين يسيئون استخدام هذه النعم الزمنية.

٤. كل البركات الأرضية يجب احتقارها بالمقارنة مع الحياة السماوية. التطلع لما بعد هذه الحياة دمره الحب المفرط للأشياء المخلوقة. أولًا، الشهوة المفرطة.

٥. ثانيًا: نفاد الصبر والرغبة المفرطة. علاج هذه الشرور. الأشياء المخلوقة المخصصة لاستخدامنا. لا يزال الإنسان مسؤولاً عن استخدام هذه الأشياء.

٦. الله يطلب منا في كل أفعالنا أن ننظر إلى دعوته. استخدام هذه العقيدة. إنها مليئة بالراحة.

الفصل الأول

حياة الإنسان المسيحي: كيف يحثنا عليها الكتاب المقدس؟

يتكون هذا الفصل الأول من قسمين: القسم الأول، العلاقة بين هذا التعليم عن الحياة المسيحية وعقيدة التجديد والتوبة. خطة البحث (الأجزاء ١-٣). القسم الثاني، تطرفات ينبغي تجنبها؛ ١. إدانة المسيحيين الكذبة الذين ينكرون المسيح بأعمالهم (الجزء ٤). ٢. لا ينبغي أن ييأس المسيحيون، مع أنهم لم يبلغوا الكمال، بشرط أن يحرزوا تقدمًا يوميًا في التقوى والاستقامة.

١- خطة البحث

إن هدف التجديد – كما ذكرنا سابقًا – هو أن تُبدي حياة المؤمنين تناغمًا وتوافقًا بين بر الله وطاعتهم، لتثبت التبني الذي نالوه كأبناء (غل٤: ٥؛ قارن ٢بط ١: ١٠).

يحتوي ناموس الله في ذاته تلك الجدة التي بها يمكن أن تُستعاد فينا صورته. ولأن بُطأنا يحتاج إلى وخزات ومساعدات، يفيدنا أن نستعين بمختارات متعددة من النصوص الكتابية تشكل منظومة للسلوك، بها يستطيع كل من يتوب ألا يضل في غيرته.

وفي بسط أسلوب يتدرب عليه المسيحي في حياته، لست أغفل أنني أقدم على موضوع متعدد الوجوه يحتل مجلدًا ضخمًا بسبب اتساعه لو حاولت أن

أعالجه في ملء تفاصيله. فعندما شرع المعلمون القدامى في تأليف إرشادات لاتباع فضيلة واحدة، جنحوا كما نرى إلى الإسهاب والإطناب. ومع هذا لم يبذروا في ذلك أي كلمات. هذا لأنه عندما يشرع إنسان في النصح بفضيلة واحدة، تدفعه وفرة المادة وغزارتها إلى أسلوب ممتلئ، حتى إنه لا يستطيع أن يوفيه حقه إن لم يسترسل في الحديث عنه. ولكنني لست أعزم أن أطور ههنا إرشادات مفصلة للسلوك الحياتي تبعًا للفضائل الفردية، أو أن أحيد إلى الوعظ، إذ يمكن الحصول على ذلك من كتابات الآخرين ولا سيما مواعظ الآباء. أما أنا فسوف أكتفي بأن أرى الإنسان التقى كيف يهتدي إلى حياة مدربة على الاستقامة، وأن أضع – على نحوٍ موجزٍ- قاعدة شاملة جامعة يقرر واجباته على أساسها. وقد توجد فرصة للخطابة أحيانًا، أو قد أترك الآخرين القيام بما لا كفاءة لي فيه. إنني بطبيعتي أميل إلى الإيجاز، فالأرجح أنني لن أفلح إن رغبت في إطالة الحديث. وحتى إذا أثر الأسلوب التعليمي الموسع، فإنني لا أرغب في انتهاجه. وعلى كل حال، فإن مسيرة الموضوع الحالي تتطلب أن أعطي العقيدة هيكلاً مبسطًا، مع مراعاة الإيجاز بقدر الإمكان.

وكما وضع الفلاسفة حدودًا لكل ما هو حق وكل ما هو جليل، منه تنبع الواجبات الفردية وجمهرة الفضائل، فهكذا لا يفتقر الكتاب المقدس إلى منهجه في هذا المجال، بل يحتوي على تدبير إلهي فائق الكمال لشؤون العالم، وتهذيب أكيد يعلو مقامًا على كل قواعد الفلسفة. والفرق الوحيد هو أن الفلاسفة – باعتبارهم أناسًا طموحين – اجتهدوا للتوصل إلى أبلغ وضوح لكي يظهروا براعتهم وحصافتهم. أما روح الله فلأنه يعلم دون تكلف، لا يلتزم هكذا دائمًا، أو هكذا مقيدًا بمسلك منهجي، ولكنه عندما يضع منهجًا في أي مجال، يؤشر بما فيه الكفاية إلى أهمية الالتزام به.

٢- بواعث على الحياة المسيحية

إن لهذا التعليم الكتابي الذي نتحدث عنه جانبين رئيسين: أولهما هو أن تتطبع وتتوطد في قلوبنا محبة البر تدريجيًا، حيث إننا بدون ذلك التدريب لا ننزع إليها بطبيعتنا، والثاني هو أن يضع لنا قاعدة تحفظنا من أن نضل تائهين في سعينا نحو البر.

فالكتاب المقدس يزخر بالدوافع العظيمة التي تبعث على طلب البر، والتي ذكرنا منها في عدة مواضع عددًا ليس بقليل، كما سنتطرق هنا إلى غيرها بإيجاز. فأي أساس أفضل يقوم عليه البر من التحذير الكتابي أنه ينبغي أن نكون قديسين لأن الرب إلهنا قدوس؟ (لا١٩: ٢٠؛ ١بط ١: ١٥- ١٦). حقًا، إنه على الرغم من أننا تشتتنا كخراف ضالة وتشردنا في متاهات العالم، قد جمعنا ثانية إلى ذاته لنعود إليه. فكلما سمعنا ذكرًا لاتحادنا مع الله، فلنتذكر أن رباط وحدتنا معه هو القداسة، ليس لأننا نأتي إلى الشركة معه بفضل قداستنا نحن، بل يلزم حريًا أن نلتصق به أولاً، فنتبعه حيثما يدعونا بدافع قداسته التي تنسكب فينا. ولكن حيث إن الصفة الخاصة المميزة لمجده هي ألا يكون له شركة مع الإثم والدنس، لهذا يعلمنا الكتاب أن هذا هو هدف دعوتنا الذي يلزم أن نثبت أنظارنا نحوه إذا أردنا أن نستجيب لله عندما يدعو (أش٣٥: ٨ الخ)، وإلا فلأي قصد انتشلنا من نجاسة هذا العالم ومن شره الذي غرقنا فيه، إن كنا نسمح لذواتنا أن نتمادى فيه طوال أيام حياتنا؟ إلى ذلك، يعظنا الكتاب بأنه إذا كنا لنحسب بين شعب الرب ينبغي أن نسكن في المدينة المقدسة أورشليم (قارن مز١١٦: ١٩؛ ١٢٢: ٢- ٩). ولما كان الله نفسه قد قدس هذه المدينة لنفسه، فإن

تدنيسها بنجاسة سكانها يعتبر تعديًا على شريعته. ومن ثم هذه التصريحات سوف يوجد مكن في مقادس سُكنى العلي للسالك بالكمال والعامل بالحق، والذي يسير أمامه بلا عيب أو ملامة (مز١٥: ١- ٢؛ قارن أيضًا ٢٤: ٣-٤). ومن المشين أن يصير المقدس الذي يسكنه الله كزريبة مكتظة بالوسخ.

٣- تنال الحياة المسيحية أقوى باعث على عمل الله من خلال شخص المسيح وعمله الفدائي

ولكي نتنبه على نحو أكثر فاعلية، يبين الكتاب المقدس كيف أن الله الأب، وهو قد صالحنا لنفسه في المسيح (قارن ٢كو ٥: ١٨)، قد طبعنا فيه على صورته (قارن عب١: ٣) التي يريد أن نشاكلها. فليأت الآن من يظنون أن فلسفة السلوك الأخلاقي منظومة يتفرد بها الفلاسفة وحدهم، بما يثبت لي أن لدى الفلاسفة تدبيرًا أفضل لشؤون الحياة! فبينما هم يرغبون على الأخص أن يحثونا على الفضيلة، يعلنوني أن جل المطلوب هو أن نعيش بحسب الطبيعة. أما الكتاب فيستمد تعليمه من الينبوع الحقيقي[1]. فهو لا يكتفي بأن يأمرنا أن نعزو حياتنا إلى الله خالقها الذي لا تنفصم عنه، بل يضيف -بعد أن علمنا أننا ترديناعلى أصلنا الحقيقي وحال نقائنا عند خلقنا - إن المسيح الذي بواسطته نعود إلى إحسان الله ورضاه، قد وضع أمامنا كمثال نقتديه ونبرزه في حياتنا. ماذا يمكن أن يكون أعظم أثرًا من هذا الشيء الواحد لنطلبه؟ لا بل ما الذي يمكنك أن تسعى إليه بعد هذا وحده؟ لقد تبنانا الرب فحسبنا أبناء على هذا

(١) ملا ١: ٦؛ اف ٥: ١؛ ١ يوحنا ٣: ١، ٣؛ اف ٥: ٢٦؛ رو ٦: ١-٤؛ ١ كو ٦: ١١؛ ١ بط ١: ١٥، ١٩؛ ١ كو ٦: ١٥؛ يوحنا ١٥: ٣؛ اف ٥: ٢، ٣؛ كو ٣: ١، ٢؛ ١ كو ٣: ١٦؛ ٦: ١٧؛ ٢ كو ٦: ١٦؛ ١ تس ٥: ٢٣.

الشرط الواحد. هو أن تظهر المسيح حياتنا. حيث إنه وثاق تبنينا وكفالته. وعلى هذا الأساس إن لم نعظم ذواتنا ونكرسها للبر، فإننا نتمرد على خالقنا وليس هذا فحسب، بل نعلن تخلينا عن مخلصنا نفسه.

كما أن الكتاب المقدس يجد مجالاً لإرشادنا إلى جميع احسانات الله التي يسردها لنا وإلى كل ناحية من نواحي خلاصنا، فمنذ أن أعلن الله ذاته أبًا لنا، إنما نبرهن بلا شك على جحودنا لفضله إن لم نظهر نحن بدورنا ذواتنا كأبناء له (ملا١: ٦؛ أف ٥: ١؛ ١يو٣: ١). ومنذ أن طهرنا المسيح بغسل دمه وأضفى علينا طهارته بالمعمودية، لا يليق أن ندنس ذواتنا بالجديد من الملوثات (أف٥: ٢٦؛ عب١٠: ١٠؛ ١كو٦: ١١؛ ١بط ١: ١٥، ١٩). ومنذ أن طُعمنا في جسده، ينبغي أن نعتني على وجه الخصوص بألا نشوه أنفسنا التي هي أعضاؤه، بأي عيب أو دنس (أف٥: ٢٣- ٣٣؛ ١كور٦: ١٥؛ يو١٥: ٣- ٦). ومنذ أن صعد المسيح نفسه وهو رأسنا إلى السماء، ويجب علينا إذ طرحنا جانبًا أمورنا الأرضي، أن نصبو بكل قلوبنا نحو السماء (كو٣: ١ وما بعده. ومنذ كرسنا الروح القدس هياكل الله، ينبغي أن يشرق مجد الله فينا، وألا ندنس ذواتنا بوسخ الخطيئة (١كو٣: ١٦؛ ٦: ١٩؛ ٢كو٦: ١٦). وحيث أن كلاً من أرواحنا وأجسادنا هُيئت للنقاء السماوي ولإكليل لا يفنى (١بط ٥: ٤)، يتحتم أن نسعى جاهدين بجرأة وجسارة للحفاظ على طهارتها إلى ذلك اليوم، يوم الرب (١تس٥: ٢٣؛ قارن في١: ١٠). أقول هذه هي الأساس المبشرة بالثبات والتي عليها يبنى الفرد حياته. ويسعى باطلاً من يبحث عن مثلها لدى الفلاسفة الذين في تزكيتهم للفضيلة لن يتمكنوا من الارتقاء فوق كرامة الإنسان الطبيعية.

٤-ليست الحياة المسيحية حديث اللسان، بل هي اهتمام أعمق أعماق القلب

وهذه هي اللحظة الملائمة لتوبيخ الذين يتخذون لذواتهم لقب "المسيحيين" بينما لا يمتلكون سوى اسم المسيح وشارته. ولكن يا للوقاحة التي بها يتباهون باسمه القدوس! حقًا، إنه لا شركة مع المسيح إلا لمن اجتنوا إدراكًا صحيحًا له من كلمة الإنجيل. فالرسول يقول إن كل من لم يتعلموا أن يلبسوا المسيح، لم يتعلموه بعد لأنهم لم يخلعوا الإنسان العتيق الفاسد بحسب شهوات الغرور (أف٤: ٢٢، ٢٣٤). لذلك ثبت أنهم ادعوا معرفة المسيح كذبًا وظلمًا بينما يثرثرون عن الإنجيل بصخب كما لو عن علم ودراسة. إن معرفة المسيح ليست تعليمًا كلاميًا، بل هي صميم الحياة. إنها لا تحصل بالفهم والذاكرة وحدهما كما هي فروع المعرفة الأخرى. بل تستوعب عندما تسيطر في على النفس بجملتها وتجد عرشها ومقرًا راحتها في قرارة وجدان القلب. لذلك فليتوقفوا عن المفاخرة بما ليسوا هم، ازدراء لله، أو فليظهروا أنفسهم تلاميذ جديرين بالمسيح معلمًا لهم لقد وضعنا أولى أولوياتنا للتعليم الذي يحتوي صميم ديانتنا حيث إن به مبتدأ خلاصنا. ولكن يتحتم أنه يتغلل في قلوبنا ومنها يخرج إلى حياتنا اليومية، وبهذا يحولنا إلى ذاته حتى يثمر فينا. يتقد الفلاسفة غضبًا، بحق إزاء من يستحقون بالفضيلة كما يقتلع من وسطهم بالخزي من يحولون مباد ينبغي أن تسود الحياة إلى ثرثرة سفسطائية فكم بالحري إذا يلزمنا أن نمقت بشدة أولئك السفسطائيين التافهين الذين يرتضون بأن تتدفق كلمات الإنجيل من أطراف ألسنتهم، بينما ينبغي أن تخترق فاعليته أعمق أعماق مشاعر قلوبهم، وتتخذ مركزها في النفوس، وتؤثر في الإنسان بكليته بعمق يزيد مئات المرات

عن النصائح الباردة التي يعظ بها الفلاسفة.

٥- عدم الكمال، ومسعى الحياة المسيحية

لست أصر ألا تتنفس الحياة الأخلاقية للمسيحي سوى الإنجيل بعينه، ولو أن ذلك ينبغي أن يكون رغبته، وأنه ينبغي أن نسعى إليه. كما لست أشدد على الكمال الإنجيلي إلى درجة أنني لا أظنه مسيحيًا من لم يحرزه بعد. لأنه إذا اشترط ذلك، فلن يكفي أحد أن يكون عضوًا في الكنيسة إذ لا يوجد أحد غير بعيد عنها، بينما كثيرون قد اتخذوا خطوات قليلة نحوها بحيث يُمسى من الظلم أن يستعبدوا عنها.

ماذا إذًا؟ لنضع نصب أعيننا ذلك الهدف الذي نبذل كل جهدنا لإصابته. وليكن ذلك هو المرمي المعين الذي نسعى نحوه ونكافح للتوصل إليه. لأنه ليس من الصواب أن تتقاسم الأمور مع الله، بحيث تقبل أن تفعل البعض مما توصيك به كلمته بينما تهمل البعض الآخر. إنه في المقام الأول وفي كل مكان يوصي بالأمانة كصفة رئيسية لعبادته (تك١٧: ١؛ مز٤١: ١٢، الخ). بذلك يعني فكرًا يتسم بالبساطة والإخلاص، حرًا من المكر والغش، عكس الفكر ذي الرأيين. كما لو كان يقال عن ذلك، إن بداية العيش المستقيم هي روحية الأصل، حيث يكون الإحساس الداخلي للعقل مكرسًا لله بلا زيف، لإنماء القداسة والبر.

ولكن ما من إنسان يسكن سجن الجسد الأرضي إلا ويفتقر إلى القدرة الكافية ليجاهد قُدمًا بشوق وغيرة، فيتثقل الكثيرون – مترددين وعارجين بل زاحفين على وجه الأرض – ليتحركوا في وهن وضعف. إذًا فليسر كل واحد منا

بحسب ما أوتي من قدرة يسيرة، وليمضي في الرحلة التي عزمنا على اتخاذها. فلن يمكن أن يشرع أحد مشؤومًا هكذا بحيث لا يحقق كل يوم بعض التقدم، مهما كان ضئيلاً. لذلك دعونا لا نكف عن أن نعمل على المثابرة في المضي قُدمًا في طريق الرب، كما ألا نيأس بسبب ضآلة نجاحنا، لأنه وإن كان إنجازنا لا يتناسب مع قدر رغبتنا، وإن تخلف يومنا عن أمسنا، فلن تُمس محاولتنا خسارة. لنثبت أنظارنا نحو المرمى فقط ببساطة وإخلاص ولنطمح إلى الهدف، بل لنثابر في اجتهادنا – ليس بتهنئة ذواتنا، ولا بالتماس الأعذار لأخطائنا وآثامنا – حتى نسعى إلى هذه الغاية: وهي أن نتفوق على ذواتنا في العمل الصالح إلى أن نحقق الصلاح ذاته. إن هذا ما نرنو إليه ونتبعه طوال أيام حياتنا. ولكننا نحققه عندما نطرح فقط عنا وهن أجسادنا وننضم إلى ملء الشركة معه.

الفصل الثاني

جملة الحياة المسيحية: إنكار أنفسنا

أقسام هذا الفصل هي: أولًا، تتطلب القاعدة التي تسمح لنا بعدم الشرود في دراسة البر شيئين، وهما أن يكرس ذلك الرجل، الذي يتخلى عن إرادته، نفسه بالكامل لخدمة الله؛ ويترتب على ذلك أنه لا يجب أن نسعى إلى ما لأنفسنا، بل الأشياء التي هي لله (الأجزاء ١، ٢). ثانيًا، وصف لهذا التجديد أو الحياة المسيحية مأخوذ من رسالة بولس الرسول إلى تيطس، ويتم شرح ذلك بدقة تحت أفكار رئيسية خاصة معينة (الأجزاء ٣ وحتى نهاية الفصل).

(فلسفة الحياة المسيحية في التغرب عن العالم وإنكار الذات، نحن لسنا لذواتنا بل لله، ١- ٣)

١- لسنا أسياد ذواتنا، لكننا ننتمي إلى الله

على الرغم من أن ناموس الرب يوفر للإنسان أفضل منهج وأنقاه لإدارة حياته، بدا خيرًا للمعلم السماوي أن يصوغ شعبه على أساس نظام أكثر صراحة من القاعدة التي وضعها له في الناموس. وهاك بداية هذا النظام: إن واجب كل المؤمنين هو أن «يقدموا أجسادهم ذبيحة حية مقدسة مرضية عند الله» وبذلك تقوم عبادتهم الحقيقية المقبولة لديه (رو١٢: ١). ومن هنا تستمد الوصية بألا يشاكلوا هذا الدهر، بل يتغيروا عن شكلهم بتجديد أذهانهم،

لتختبروا «ما هي إرادة الله الصالحة المرضية الكاملة» (رو١٢: ٢). أما هذا فهو الأمر العظيم: وهو أننا مكرسون وموقوفون لله، لكي نستطيع بعدئذ أن نفكر ونتكلم ونتأمل ونعمل ما هو لمجد الله ولا لشيء سواه، حيث إن كل ما هو مقدس لا يمكن أن يستخدم فيما هو دنيوي دون أذى له.

فإن كنا إذًا لسنا لذواتنا (قارن ١كو٦: ١٩) بل لله، يتضح لنا الخطأ الذي يجب أن نهجره، وإلى أين ينبغي أن نوجه جميع تصرفات حياتنا.

لسنا لذواتنا: فلا ندع عقولنا أو إرادتنا تتحكم في خططنا وأعمالنا.

لسنا لذواتنا: فلا نسع وراء ما ينفعنا بحسب الجسد.

لسنا لذواتنا: فلننس – بقدر طاقتنا - ذواتنا وكل ما لنا.

إنا لله: فلنعش إذًا له ولنمت له.

إنا لله: فلتسيطر حكمته وإرادته على جميع أفعالنا.

نحن لله: فلتسع جميع أجزاء حياتنا نحوه، إذ هو مقصدنا الحقيقي الوحيد (رو١٤: ٨؛ قارن ١كو٦: ١٩).

يا لغنى الإنسان الذي، إذ تعلم أنه ليس لذاته، قد تخلى عن سيطرة فكره وهيمنته وأخضعه لله! لأنه بقدر ما نتبع مصالحنا الذاتية، وهو أخطر وبأ يؤول بنا إلى الدمار، هكذا خلاصنا الأوحد أن نصير حكماء في لا شيء، وألا نريد شيئًا من خلال ذواتنا، بل أن نتبع ما يقودنا إليه الرب وحده.

فلتكن هذه إذًا الخطوة الأولى، أن يهجر الإنسان نفسه حتى يهب كل طاقة قدرته لخدمة لرب. أدعو «خدمة» ليس ما يكمن في إطار كلمة الله فقط، بل

ما يحول ذهن الإنسان، ذلك الذهن الذي هو في حد ذاته دنيوي وجسدي وشهواني وخالٍ من الإدراك، إلى الإذعان الكامل لدعوة روح الله. وفيما كان ذلك هو المدخل الأول للحياة، أمسى جميع الفلاسفة جهلاء بهذا التحول الذي يسميه بولس «تجديد الذهن» (أف٤: ٢٣). هذا لأنهم ينصبون العقل وحده المبدأ المتحكم في الإنسان، ويعتقدون بأن له وحده ينبغي أن يُصغى له وحده، فبالإيجاز يستودعونه سلوك الحياة. أما الفلسفة المسيحية فتدعو العقل إلى أن يخضع للروح القدس وأن يُحيل سلطته إليه حتى لا يحيا بعدئذٍ الإنسان نفسه، بل ليسمع المسيح حيًا ومتملكًا في داخله (غل٢: ٢٠).

٢- إنكار الذات بالتكريس لله

على ذلك أيضًا تترتب الخطو الثانية: وهي أننا لا نطلب ما لأنفسنا بل الأشياء التي هي لله، والتي تعمل على تمجيده. وهذا أيضًا يبين تقدمًا عظيمًا: أننا إذ نكاد ننسى نفوسنا، وبغير ريب نقمع الاهتمام بالذات، نحاول بأمانة أن نكرس غيرتنا لله ولوصاياه. لأنه عندما يدعونا الكتاب المقدس أن نترك وراءنا الاهتمام بالذات، فهو يمحو من أذهاننا نهم الامتلاك والرغبة في حيازة القوة، وإرضاء الناس، كما أنه يقتلع الطموح من جذوره، وينتزع كل تعطش إلى الجاه والمجد البشري، وما خفي في دواخلنا من الأوبئة. لذلك يتحتم بالتأكيد على المسيحي أن يميل – قلبًا وعقلاً- إلى أن يحس في أعماقه بأنه يتعامل مع الله مدى حياته. وبهذه الطريقة إذ يوكل كل ما له لمشيئة الله وحكمه، يفوض إليه كذلك بكل تدقيق جملة عزيمة الفكر. لأن من تعلم أن ينظر إلى الله في كل ما عليه أن يعمله، يجتنب في الوقت ذاته كل فكر باطل. هذا إذًا هو إنكار الذات

الذي يأمر به المسيح تلاميذه بكل جدية في مستهل خدمتهم (قارن مت١٦: ٢٤). وإذ تملك ذلك مرة في قلوبهم، لا يترك مجالاً البتة إما للغرور أو للصلف أو للتباهي أولاً، ثم إما للجشع أو للشهوة أو للفسق أو للتخنث أو لمختلف الشرور الأخرى التي يلدها حب الذات (قارن ٢تي٣: ٢- ٥).

أما من الجانب الآخر فحيث لا يسود إنكار النفس، هنالك تتفشى أشنع الرذائل بلا حياء، أو إن وجد أحد ما قد يشبه الفضيلة، فذاك تبطله الشهوة الفاسدة التي تسعى إلى الشهرة والمجد. أرني، إن استطعت، إنسانًا لم يكن قد أنكر نفسه بحسب وصية الرب، قد زاول الصلاح بين الناس من تلقاء ذاته. فإن كل من لم يمتلكهم هذا الشعور، قد اتبعوا سبيل الفضيلة سعيًا وراء المديح. ومن كان من الفلاسفة من شدد الوصية على أن الفضيلة ينبغي أن تطلب لأجل ذاتها، فقد وجد منتفخًا بالزهو الذي يكشف عن أن اقتفاء الفضيلة لم يكن إلا سبيلاً للازدهاء. أما الله فيمقت أولئك الذين يحاولون اكتساب التيار الشعبي، وبنفوس منتفخة، بحيث يعلن أنهم نالوا مكافأتهم في هذا العالم (مت١٦: ٥؛ ٦: ٢)، وأن العشارين والزناة يسبقونهم إلى ملكوت الله (مت٢١: ٣١). مع كل هذا، لا زلنا لم نشرح بوضوح ما أكثر وما أجسم العقبات التي تعوق الإنسان عن النهج السليم ما دام لم يكن نفسه. فلقد قيل ذات مرة: «إن عالمًا من الرذائل يكمن في نفس الإنسان». ولا يمكنك أن تجد دواء إلا في إنكار نفسك والتخلي عن الاهتمام بذاتك، وتوجيه فكرك كليًا ليسعَ صوب ما يطلبه الرب منك، وليطلبه لمجرد أنه يحسن في عينيه.

٣- انكار الذات بحسب تيطس

في موضع آخر، يبين بولس بأكثر وضوح ولو بالاختصار، الأوجه المنفردة للحياة المنتظمة. «أَنَّهُ قَدْ ظَهَرَتْ نِعْمَةُ اللهِ الْمُخَلِّصَةُ لِجَمِيعِ النَّاسِ، مُعَلِّمَةً إِيَّانَا أَنْ نُنْكِرَ الْفُجُورَ وَالشَّهَوَاتِ الْعَالَمِيَّةَ، وَنَعِيشَ بِالتَّعَقُّلِ وَالْبِرِّ وَالتَّقْوَى فِي الْعَالَمِ الْحَاضِرِ، مُنْتَظِرِينَ الرَّجَاءَ الْمُبَارَكَ وَظُهُورَ مَجْدِ اللهِ الْعَظِيمِ وَمُخَلِّصِنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِي بَذَلَ نَفْسَهُ لأَجْلِنَا، لِكَيْ يَفْدِيَنَا مِنْ كُلِّ إِثْمٍ، وَيُطَهِّرَ لِنَفْسِهِ شَعْباً خَاصّاً غَيُوراً فِي أَعْمَالٍ حَسَنَةٍ». فإنه بعدما قدم نعمة الله لتشجيعنا على عبادة الله عبادة حقيقية، أزال العقبتين الرئيستين اللتين تعوقاننا: أولاهما الفجور الذي نحن بطبيعتنا ميالون إليه حتى أبعد الحدود، وثانيهما الشهوات العالمية التي تتفشى على نطاق أوسع. أماعن الفجور فلا يقصد به مجرد المعتقدات الخرافية، بل يشمل كل ما يقاوم مخافة الله الجادة (قارن ١يو ٢: ١٦؛ أف٢: ٣؛ ٢بط٢: ١٨؛ غل٥: ١٦؛ الخ). وهكذا فهو يأمرنا بأن نخلع عنا طبيعتنا وننكر كل ما تمليه علينا عقولنا وإراداتنا. إنه يحد كل أفعال الحياة في ثلاثة أجزاء: التعقل، والبر، والتقوى. من هذه لا شك في أن التعقل يعني الطهارة والعفة والاعتدال في الشراب، والنقاء والاقتصاد في استهلاك الأشياء المادية، والصبر في أحوال الفقر. أما البر فيشمل كل واجبات الاستقامة بهدف أن يعطي كل ذي حق حقه (قارن رو١٣: ٧). وأخيرًا التقوى، وهي التي تجعلنا على صلة بالله في قداسة حقيقية عندما نفصم علاقاتنا بشرور العالم. فإذ تجتمع هذه الصفات معًا برباط وثيق تنتج الكمال التام. ولكن حتى بعد أن ودعنا منطق الجسد، وبعد أن ألجمنا رغباتنا – لا بل تخلينا عنها تمامًا – لا يوجد هنالك ما هو أصعب من أن نخصص

ذواتنا لله وأن نكرس نفوسنا لإخوتنا، وأن نتأمل – في وسط قذارة الأرض - حياة الملائكة. ولهذا، لكي يبعد أذهاننا عن كل شرك وفخ، يدعونا بولس إلى رجاء الخلود المبارك، ويذكرنا أننا لا نسعى باطلاً (قارن١تس٣: ٥). لأنه كما ظهر المسيح فادينا مرة، كذلك يظهر لنا عند مجيئه الأخير ثمار الخلاص الذي أحرزه لأجلنا. وبهذا يبعثر كل المغريات التي تحجب أنظارنا وتحول بيننا وبين التطلع كما ينبغي إلى المجد السماوي. لا بل إنه يعلمنا أن نسافر سياحتنا في هذا العالم، بحيث لا يفنى ميراثنا السماوي ولا يضمحل.

٤- إنكار الذات يمنحنا الفكر السليم حول علاقاتنا بسائر الناس

من هذه الكلمات نرى أن إنكار الذات يتوجه من جهة إلى الناس، ومن أخرى أهم إلى الله.

فإنه عندما يوصينا الكتاب المقدس بأن نحسب بعضنا بعضًا أفضل من أنفسنا (في٢: ٣)، وأن نبذل أنفسنا بإخلاص لما هو لمصلحة الآخرين (قارن رو١٢: ١٠)، يعطينا وصايا لا يستطيع العقل أن يستوعبها إن لم يكن أولاً قد أخلى من ميله الطبيعي. فهذا هو العماء الذي يدفعنا إلى حب النفس الذي يبدو لكل منا أن له ما يكفي من الأسباب للافتخار بالذات، وازدراء الآخرين بالمقارنة مع أنفسنا [نظن] أن الله كان قد وشحنا بما لا نحتاج إلى أن نتوب عنه فإننا إذ نعتمد على ذلك الإحساس، تتعالى توا أذهاننا، ولسنا نمتلئ عجبًا فحسب، بل نكاد أن ننفجر بالغرور. نبذل غاية جهدنا لنخفي عن الآخرين الرذائل التي تموج في خبايانا، بينما نفتتن بذواتنا ونخدع أنفسنا باعتبار نقائصنا شيئًا طفيفًا غير ذي أثر، بل بأن نحسبها من الفضائل. وإن أبدي الآخرون

المزايا نفسها التي نعجب بها في ذواتنا، أو ما قد تتفق على مزايانا، نحقرها ونهزأ بها لكيلا نتخلى عن مكاننا لغيرنا. وإن وجد في غيرنا بعض العيوب، فإننا إذ لا نكتفي بالإشارة القاسية المخزية إليها، نبالغ فيها ببغض وكره. ومن ثم تبرز الغطرسة التي يريد بها كل واحد منا أن يسمو على الآخرين، لا بل يُسيء بتشامخ وإيذاء وحشي معاملة كل إنسان، أو يزدريه على الأقل، كما لو كنا معفيين من حالة الجنس البشري. وهكذا يخنع الفقراء للأثرياء، والعامة للنبلاء، والخدام للأسياد، والأميون للمثقفين. لكنه لا يوجد من لا يدلل في نفسه اعتقادًا بسموه على الآخرين.

هكذا يحمل كل فرد بافتتانه بذاته، مملكة في صدره. ولكي يدعي لذاته ما يرضيه، يستهجن شخصية الآخر وخلفياته. وإذا أدرك ذلك حدود النزاع، ينفجر سم ضغينته. وقد يظهر الكثيرون بالطبع بعض اللطف ما داموا قد وجدوا كل شيء حلوًا وسارًا. ولكن كم من أولئك يحافظون حتى على مظهر هذا الاتضاع إذا استفزوا أو أغضبوا؟ ليس ثمة علاج سوى أن يُستأصل من أعماق دواخلنا ذلك الوباء المميت – وباء التنازع والخلاف وحب الذات، خصوصًا إذا استؤصل بواسطة التعليم الكتابي – لأنه هكذا يعلمنا الكتاب أن نتذكر أن المواهب التي منحنا إياها الله، ليست من ذواتنا، بل هي عطية الله لنا، وأن كل من يتفاخر بها عقوق. بولس يسأل: «لأَنَّهُ مَنْ يُمَيِّزُكَ؟ وَأَيُّ شَيْءٍ لَكَ لَمْ تَأْخُذْهُ؟ وَإِنْ كُنْتَ قَدْ أَخَذْتَ فَلِمَاذَا تَفْتَخِرُ كَأَنَّكَ لَمْ تَأْخُذْ؟» (١كو٤: ٧).

فلندع أنفسنا، بامتحان دؤوب لعيوبنا، أن تعود إلى الاتضاع. بهذا لن يبقَ فينا ما نتفاخر به، بل سيظل فينا الكثير مما يحزننا. ولكننا من جانب آخر

مدعوون أن نقيم ما نرى في الآخرين من مواهب أغدقها الله عليهم، فنكرم أولئك الذين تسكن فيهم تلك المواهب. لأنه يمسي من عظم فسادنا أن نحرمهم تلك الكرامة التي وهبها الله لهم. أما نحن فيعلمنا الكتاب أن نتغاضى عما فيهم من عيوب، وبالتأكيد ليس على سبيل التملق، بل ألا نحقر من ينبغي أن نعتز بهم بحسن النية والتكريم. عندئذ يمكننا أن نعامل أي إنسان، لا بالاعتدال والاتضاع فحسب، بل بمودة قلبية كصديق. إنك لن تصل إلى الدماثة الحقيقية إلا بطريق واحد: هو القلب الممتلئ بالتواضع وتوقير الآخرين.

٥- إنكار النفس يقود إلى مد المعونة الصحيحة إلى القريب

ما أصعب على الإنسان أن يسعى إلى نفع القريب! إنك إن لم تتخل عن كل فكر في الذات وتخرج من ذاتك، إذا جاز الكلام، فلن تنجز شيئًا في هذا المجال. لأنه كيف يمكنك أن تقوم بتلك الأعمال التي يسميها بولس أفعال المحبة إن لم تنكر ذاتكم وتهب نفسك بجملتك لغيرك؟ يقول: «الْمَحَبَّةُ تَتَأَنَّى وَتَرْفُقُ. الْمَحَبَّةُ لاَ تَحْسِدُ. الْمَحَبَّةُ لاَ تَتَفَاخَرُ، وَلاَ تَنْتَفِخُ وَلاَ تُقَبِّحُ وَلاَ تَطْلُبُ مَا لِنَفْسِهَا وَلاَ تَحْتَدُّ وَلاَ تَظُنُّ السوء» (١كو١٣: ٤- ٥). إن كان هذا هو الشيء الوحيد المطلوب – لا أن نسعى إلى ما لذواتنا – فإننا نتغلب بمقدار غير قليل على الطبية التي تدفعنا إلى محبة نفوسنا وحدها، حتى لا تسمح لنا بسهولة أن نتنازل عن ذواتنا والأشياء التي لنا لنهتم بخير الآخر، لا بل لنخضع – عن رضا – ما لنا بموجب حقوقنا فنتنازل عنه لغيرنا. أما الكتاب المقدس، فلكي يمسك بأيدينا ويقودنا إلى ذلك، يحذرنا من كل النعم التي نلنها من يد الرب، فقد أودعت معنا على هذا الشرط: وهو أن تستثمر لصالح الكنيسة العام. ومن ثم صار الاستخدام

الصحيح لجميع تلك البركات يقوم على المشاركة السخية بالصدر الرحب مع الآخرين. ليس ثمة قاعدة أثبت، ولا نصح أرشد لحفظها من أن نتعلم أن جميع نعم الله المتنوعة التي لنا، إنما هي منحة لنا من عند الله، موكلة إلينا على شرط استخدامها لمنفعة الآخرين (انظر ١بط٤: ١٠).

أما الكتاب المقدس فيبتعد بنا أكثر ليقارن تلك النعم بالقدرات التي أودعت في جميع أعضاء الجسد (١كو١٢: ١٢ وما يليه). فليس لأحد الأعضاء قدرة لذاته أو لما يؤول إلى نفعه الخاص، بل إن كل عضو يسكب قدرته لسائر الاعضاء. كما لا يأخذ عضو من قدرته إلا بقدر النصيب الذي يعود عليه من الفائدة الشاملة للجسد كله. وهكذا أيضًا، كل ما أتيح للإنسان التقي أن يفعله، فليكن لخير إخوته بحيث لا يجتني لذاته سوى ما عقد نيته على بناء الكنيسة كلها. لتكن هذه إذًا القاعدة للسخاء والإحسان: نحن وكلاء على كل ما أعطانا الله إياه، والذي به نستطيع أن نعين قريبنا، ونحن مطالبون بأن نعطي حسابًا لوكالتنا. وأكثر من ذلك، إن الوكالة الحقيقية الوحيدة هي تلك التي تجتاز اختبار قاعدة المحبة. وما يحدث عندئذٍ ليس أن نوجه اهتمامنا فقط نحو الآخرين فنحصد نحن ما هو لفائدتنا، بل أن نخضع هذا الأخير لذلك الأول.

ولئلا نغفل عن إدراك أن هذه هي القاعدة للإدارة الصحيحة لجميع العطايا التي نلناها من الله، فلنتذكر أنه طبقها في الآونة المبكرة على أدنى العطايا من جعبة سخائه. هذا لأنه قد أوصى بأن يأتي الشعب بالباكورة، وأن يشهد بأنه قد حُرم عليه أن يقبل أي نوع من اللذة من الإحسانات المغدقة عليه، إن لم تكن أولاً قد كرست له (خر٢٣: ١٩). أما إذا قدست عطايا الله هكذا، وهكذا

فحسب، عندما نكرسها بأيدينا للمعطي ذاته، فما لم يكرس هكذا فهو تدنيس واضح له. لكن حذار أن تظن أنك بعطائك تغني الرب، وحيث إن سخاءك لم يصل إليه، ينبغي أن تمارسه تجاه قديسي الأرض، كما أوصى النبي (مز١٦: ٢- ٣). وهكذا قورن فعل الخير والتوزيع بالذبائح المقدسة، حتى صار يعادل ما أوصى به الناموس[1] (عب١٣: ١٦).

٦- محبة القريب لا تتوقف على تصرفات الناس، بل تتطلع إلى الله

فلكيلا نكل في عمل الخير (غل٦: ٩)، كلالة يمكن أن تحدث سريعًا، يلزمنا أن نضيف الفكرة الأخرى التي يذكرها الرسول: «المحبة تتأنى... ولا تحتد» (١كو١٣: ٤- ٥). إن الله يأمر جميع الناس، بلا استثناء، أن يفعلوا الخير (عب١٣: ١٦). ولكن أكثر الناس لا يستأهلون إذا حُكم عليهم بحسب استحقاقهم. وهنا يقدم الكتاب أفضل إرشاد، إذ يعلم بألا ننظر إلى الناس بحسب أهليتهم، بل بأن نرى صورة الله فيهم، إذ أن به يليق كل الإجلال والحب. على أن هذه الصورة باذات هي ما ينبغي أن نلتفت إليها بالدقيق بين أفراد أهل بيت الإيمان على الأخص (غل٦: ١٠)، حيث إنها [أي صورة الله] تجددت واستعيدت إلى أصلها بواسطة روح المسيح. لذلك أيًا كان الإنسان الذي تصادفه محتاجًا إلى المعونة، فليس لديك حجة لرفض مساعدته. تقول «إنه غريب»، لكن الرب وضع عليه علامة لابد من أن تبدو مألوفة لك، باعتبار أنه قد حرم عليك أن تتغاضى عن لحمك (أش٥٨: ٧). تقول «إنه وضيع وتافه»، لكن الرب يظهره كشخص شاء أن يمنحه بهاء صورته. تقول إنك لست مضطرًا إلى أن تقدم له أي خدمة، لكن الله

(١) عب ١٣: ١٦؛ ٢ كو 9: 12

وضعه – إن أجاز القول – مكانه لكي تعترف أمامه بكثرة الإحسانات التي تدين بها الله. قُل إنه لا يستحق أن تبذل لأجله أقل جهد، لكن صورة الله التي تزكيه لك، جديرة بعطاء ذاتك وكل ما تقتنيه. وحتى إذا لم يكن مستحقًا لجودك، بل وإن استفزك بأفعاله ولعناته، فلن يبرر ذلك أن تمتنع عن معانقتك إياه بالحب وتأدية واجبات المحبة نحوه (مت٦: ١٤؛ ١٨: ٣٥؛ لو١٧: ٣). ستقول «لقد استحق شيئًا يختلف كثيرًا مني». لكن ماذا استحق الرب؟ فبينما يطلب الرب منك أن تغفر لهذا الإنسان الخطايا التي ارتكبها نحوك، فإن خطاياه تُحسب عليه. من المؤكد أنه ليس ثمة سوى سبيل واحد لإنجاز ما قد يصعب فعله، بل ما يتناقض تمامًا مع الطبيعة البشرية،[٢] إلا وهو أن نحب الذين يبغضوننا وأن نحسن إلى الذين يسيئون إلينا، وأن نبارك لاعنينا (مت٥: ٤٤). إننا مطالبون بألا نبالي بسوء نيات الناس، بل بأن نتطلع إلى صورة الله فيهم، وهي ما يلغي ويمحو تعدياتهم، وبجمالها وكرامتها تجذبنا لنحبهم ونضمهم إلينا.

٧- عمل المحبة الظاهري لا يكفي، إنما النيات

لا تكتمل هذه الإماتة للذات إلا إذا أكملنا واجبات المحبة. ومن يقم بكل أعمال المحبة، بل لا يُغفل عمل أحدها فلن يكملها، أما من يكمل أعمالها، فهو من يفعلها لإحساس محب مخلص. فمن الممكن أن يؤدي أحدهم بالفعل جميع واجباته من كل وجه، فيما يعني الواجبات الظاهرية، ويظل مع ذلك أبعد ما يمكن أن يكون من السبيل الصحيح لإتمامها. فقد ترى البعض ممن يرغبون أن يُظهروا سخاء وافرًا بينما لا يمنحون شيئًا إلا يشجبونه بجبين

(٢) مت ٥: ٤٤؛ ٦: ١٤؛ ١٨: ٣٥؛ لو ١٧: ٣

متغطرس حتى بكلمات وقحة. وهو الأمر الذي نراه في عصرنا المأسوي التعيس هذا حيث يعطى معظم الناس صدقاتهم باحتقار. وقد وصل ذلك التعالي والازدراء إلى حد غير المقبول حتى بين الوثنيين، أما المسيحيون فهم مطالبون بما هو أكثر من الجبين الرضى والكلام المهذب. ينبغي أولاً أن يضعوا ذواتهم في مكان من يرونه في حاجة إلى معونتهم، وأن يشفقوا على قسمته السيئة كما لو كانوا هم أنفسهم يختبرونها ويرزحون تحت حملها الثقيل، حتى يحركهم إحساس بالشفقة والإنسانية على الإسراع إلى عونه كما لو كان لأنفسهم.

إن من يقدم المعونة لإخوته من واعز ذلك الإحساس فلن يفسد ما يقوم به من واجب إما بالصلف أو باللوم. كما أن من يعطي عن طيب خاطر فلم يحتقر أخاه المعوز أو يستعبده، هو كمن يبيت مدينًا له، إذ لا يقل ذلك عن تعيير عضو مريض لما يناله من مساعدة يفوق طاقته أن يردها. فليس فضلاً أو إحسانًا أن يشارك الأعضاء احتياجات بعضهم بعضًا، بل إنه بالحري الواجب الذي تفرضه قوانين الطبيعة والذي يمسي رفضه فظيعًا. ولهذا السبب لن يظن من أدى خدمة لمحتاج أنه قد أكمل واجبه نحوه فصار حرًا من أي مسئولية أخرى تجاهه، مثلما يحدث عمومًا إذا منح أحد الأثرياء قطعة من ممتلكاته فيترك لآخرين ما تبقى من واجبات لإنجازها، وبذا يتملص من كل مسئولية تجاهها. بل على العكس، ليتأمل كل إنسان في نفسه، أنه مهما كان عظيمًا فهو بعد مدين لقريبه، ويجب ألا توضع حدود لممارسة الإحسان نحو القريب، إلا في حال خابت قدرته التي لابد أن تديرها قاعدة المحبة إلى أبعد الحدود الممكنة.

٨- إنكار الذات تجاه الله: التكريس لمشيئته

فلنراجع بصورة أوسع الجانب الرئيسي لإنكار النفس وهو – كمام ذكرنا – الجانب الذي ينظر إلى الله. الحق أن الكثير قد قيل حول هذا بحيث لم يعد ضروريًا تكراره. لذلك يكفي أن نبين كيف يدربنا [إنكار الذات] على الاتزان ورباطة الجأش.

بداية، إذ نبتغي الراحة وهدوء البال في هذه الدنيا، يدعونا الكتاب المقدس إلى أن نسلم ذواتنا وكل ما نمتلك لمشيئة الرب، وأن نذعن له بكل رغبات قلوبنا ليروضها ويخضعها. فثمة شهوة جامحة للسعي وراء الغنى والصيت، والطموح إلى البطش والسيطرة، وتكديس الغنى والمال، واقتناء كل المغريات التي توحي بالعظمة والجاه. كما يعصف بنا خوف مُذهل، ويموج فينا بغض صاخب، تجاه الفقر والميلاد الوضيع وعدم الشهرة، وتدفعنا رغبة عارمة إلى التخلص من كل هذه بما أوتينا من قوة وبأي وسيلة كانت. ومن ثم نستطيع أن نرى كم يقلق كل من يدير حياته بحسب ما يخطط لنفسه. نرى كيف يتفننون في الكفاح -إلى حد الإعياء- نحو مرمى طموحاتهم وجشعهم بينما يحاولون اجتناب الفقر والوضاعة.

أما لكيلا يقع الأتقياء في تلك المكايد، وجب عليهم أن يثبتا على هذا الدرب: أولاً لتنصرف رغباتهم وآمالهم وتأملاتهم وكل ما قد يؤول إلى رخائهم عن كل ما لا يتأتى من بركة الرب. وعلى هذه وحدها ليلقوا ذواتهم ويستريحوا في ثقة واطمئنان. فإنه مهما كان إغراء الجسد للاكتفاء بالذات – إذ يسعى بقدرة ذاته نحو الصيت والثراء، أو يعتمد على مثابرته، أو يستعين بأفضال الناس – تؤول

كل هذه حتمًا إلى لا شيء، كما أننا لن نجني خيرًا – إما بالمهارة أو بالجهد- إن لم يجد الرب ببركته عليهما. وعلى العكس، فإن بركته وحدها تجد سبيلاً، على الرغم من كل العثرات، للخروج بثمار مفيدة لنا. ومع أننا بدون تلك البركة قد نحرز شيئًا من العزم والمجد – فإننا نعلم أن من تقع عليهم لعنة الله لا يتذوقون أقل طعم من السعادة. وهكذا نحن لن نجني شيئًا – بدون بركته الإلهية – سوى ما سوف ينقلب حتمًا إلى أسى. لذلك ينبغي ألا نشتهي ما يؤول إلى تعاسة الإنسان.

٩- الثقة ببركة الله وحدها

لذلك، إن كنا نؤمن أن كل ما يوفر لنا الرخاء يعتمد على بركة الله وحدها، التي بدونها تتربص بنا كل أنواع الكوارث والبلايا، يصح بالضرورة أيضًا أنه يلزمنا ألا نبذل قصارى جهدنا في السعي وراء الغنى والجاه، إما باعتمادنا على ذكائنا أو دأبنا، أو على أفضال البشر، أو على الثقة بثروة خيالية خادعة – بل بالنظر دائمًا إلى الرب ليقودنا بإشارة إلى ما أعد لنا من نصيب. عندئذ لن نندفع نحو الحصول على الثراء والصيت بسُبل غير مشروعة وبالتفنن في الخداع والإثم، وبالطمع وإيذاء القريب، بل نقدم على مشاريع لا تبعدنا عن البراءة.

من ذا الذي يمكنه أن يترجى بركة إلهية في حين يغش ويسرق ويقترف الشر؟ فإن تلك البركة التي تحل على من يفكر في النقاء ويفعل بالأمانة، تنادي من يطلبها بأن يبتعد عن اعوجاج الفكر وشرانية الفعل. عندئذ تلجم شهوتنا الملتهبة نحو الغنى وطموحنا المتقد نحو الشهرة والصيت. فبأي وقاحة يثق إنسان بأن يعينه الله للحصول على رغبات مناقضة لكلمة الله؟ حذار أن نظن

أن الله يوشح ببركته ما يلعنه فمه! أخيرًا، إن لم تسر الأمور كما نرغب أو بحسب ما يروقنا، فسيظل نفاذ صبرنا ونفورنا من حالنا تحت السيطرة، مهما كان حالنا، لأننا نعلم أننا بذلك نتذمر على الله الذي بحسب مشيئته يكون الغنى والفقر، كما الكرامة والوضاعة. والخلاصة هي أن من يتكل على بركة الله وحدها، كما شرحنا آنفًا لن يسعى آثمًا نحو ما يتناحر الناس عادة للحصول عليه، إذ سوف يدرك أنه بذلك لن يربح شيئًا، كما أنه إذا سارت الأمور حسنًا، فلن يرجع الفضل في ذلك إلى ذاته أو إلى جهده أو إلى مثابرته، أو إلى ثروته، لكنه يعيد الفضل إلى الله مانح النعم. أما إذا لم يتقدم إلا قليلاً (أو أن تراجعت أموره)، بينما تنجح مقاصد الآخرين، فلن يزال يتحمل وضاعة حاله بأكثر اتزان ورباطة جأش مما يتحمله شخص، أمسى نجاح متوسطًا وأقل مما كان قد اشتهى أن يكون. هذا لأنه في الحقيقة يمتلك من العزاء قدرًا يمكنه من أن تستريح فيه نفسه بسلام يعظم كثيرًا على كل ما كانت توفره له الثروة والقدرة. ولما كان هذا يؤول إلى خلاصه، يوقن أن الرب قد رسم له أموره. نرى أن هذا كان الفكر الذي لداود، فهو إذ كان يتبع مشيئة الله ويسلم أموره له ليجريها، يشهد بأنه كان بمنزلة فطيم عن صدر أمه، منشغلاً بأمور تفوق إدراكه عجبًا وعمقًا.

١٠- إنكار الذات يُعيننا على احتمال الشدائد

على أن السلام وطول الأناة اللذين تحدثنا عنهما يستقران على نفوس الأتقياء في كل حدث تتعرض له الحياة الحاضرة، وليس في الحالة التي ذكرناها فقط أعلاه. لذلك فهو وحده ينكر ذاته حقًا من سلم نفسه للرب، بحيث يسمح لكل ناحية من نواحي حياته بأن تسيطر عليها إرادة الله. ذاك من يتسم برباطة

الجأش، مهما اجتاز من ظروف لن يرثى لحاله ولن يتشكى على الله من جراء قسمته. ما ألزم هذا الطبع إذا تأملنا قدر الحوادث المحتمل وقوعها في حياتنا! فالضيقات المتنوعة تنغصنا: فتارة الطاعون، وتارة كوارث الحرب، وتارة الثلوج والبرد وخسارة المحاصيل ثم الجدب الذي ينزل بنا إلى هاوية الفقر، والموت يحصد أحباءنا: الزوجة، الِأبناء، الوالدين، والدار يلتهمها الحريق. بسبب هذه وتلك يلعن الناس حياتهم، ويمقتون يوم ولادتهم، ويسبون السماء ونور النهار، يجدفون على الله وبطلاقة ألسنتهم يتهمونه بالظلم والطغيان. أما في هذه الظروف، فعلى المؤمن أن يترقب لطف الله وعطفه الأبوي. وهكذا إذا شاهد بيته وقد خلا من ذويه وبقي هو وحيدًا فيه، فإنه لن يكف عن أن يبارك الله، بل سوف يضع نُصب عينيه هذه الفكرة: إنه على الرغم من كل هذا، فنعمة الرب التي تسكن بيتي هذا لن تتركه مهجورًا. وإن دمر الصقيع محاصيله أو اكتسحتها عواصف الثلج أو أماتها البرد، فرأى المجاعة تنبئ بالوعيد، فلن ييأس ولن يحنق على الله بل يصمد في ثقته به (قارن مز٧٨: ٤٧): «أما نحن شعبك وغنم رعايتك» (مز٧٩: ١٣). سوف يوفر الرب لنا الطعام حتى في أزمنة الجدب. وإذا أبلاه المرض فلن تهزمه مرارة الألم بحيث يفرغ صبره ويتذمر على الله، بل إذ يتأمل في بر الله ولطف تأديبه، يستعيد أناته وقدرة احتماله. إجمالاً مهما كان الحدث، فلأنه يدرك أن إرادة الله قد سمحت به، يجتازه بذهن مطمئن وبقلب شكور بحيث لا يقاوم أمر الذي أوكل ذاته وكل ماله إلى قدرته مرة وإلى الأبد.

فليبعد المسيحي عن ذهنه ذلك العزاء الأحمق والتعيس الذي للوثنيين الذين – لكي يدعموا طبائعهم إزاء الشدائد – يلقون الملامة على الحظ. عندئذ

يعتقدونه حمقًا أن يغضبوا من الحظ لأنه أعمى ولا عقل له، يبتلي بعيون مظلمة من يستحق ومن لا يستحق على السواء. أما قاعدة التقوى – على العكس – فهي أن يد الله وحدها هي التي تدين الحظ وتحكمه – جيدًا كان أو سيئًا – وأنها لا تتخبط بقوة طائشة، بل بالعدل المنتظم توزع علينا الخير والضير.

الفصل الثالث

حَمْل الصليب، جزء من إنكار الذات

الأقسام الأربعة لهذا الفصل هي: أولًا، طبيعة الصليب وضرورته وكرامته (الأجزاء ١، ٢). ثانيًا، وصف المزايا المتعددة للصليب (الأجزاء ٣-٦). ثالثًا، شكل الصليب هو الأفضل على الإطلاق، ومع ذلك فهو لا يزيل بأي حال من الأحوال كل إحساس بالألم (الأجزاء ٧، ٨). رابعًا، وصف للصراع تحت الصليب، والصبر الحقيقي، (وليس صبر الفلاسفة) على غرار المسيح، (الأجزاء ٩-١١).

[علينا أن نحمل صليبنا كأتباع المسيح ١- ٢]

١- صليب المسيح وصليبنا

يليق بالذهن التقي أن يرتقي إلى ما هو أعلى، إلى علو دعوة المسيح لتلاميذه: أن يحمل كل صليبه ويتبعه (مت١٦: ٢٤). فكل من اختاره الرب وحسبه أهلاً لشركته يلزمه أن يُعد ذاته لحياة شاقة، جاهدة، مضطربة، تواجهها مختلف ضروب الشر. إنها إرادة الآب السماوي أن يدرب أولاده بأن يضعهم تحت اختبار محدد. فابتداء بالمسيح ابنه البكر، يتبع هذه الخطة مع جميع أبنائه. ومع أن ذلك الابن كان محبوبًا فوق الجميع، وقد سُر به الآب (مت٣: ١٧؛ ١٧: ٥)، نلاحظ أنه بدلاً من أن يعامل بالرقة والتدليل - إذا تكلمنا بصراحة - لم يكن مجربًا بصليب دائم في غضون سُكناه الارضية فحسب، بل إن حياته كلها

لم تكن سوى صليب مستمر. اشار الرسول إلى سبب ذلك وهو أنه تعين أن "يتعلم الطاعة مما تألم به" (عب ٥: ٨).

فلماذا نُعفى ذواتنا إذًا من الحال الذي وجب على المسيح رأسنا أن يخضع له، ولا سيما أنه خضع له من أجلنا لكي يعطينا في ذاته مثالاً للاحتمال؟ لهذا يعلم الرسول أن الله عين لكل أبنائه أن يكونوا مشابهين للمسيح (رو٨: ٢٩). ومن ثم أيضًا ننال تعزية عظيمة المقدار ول في ظروف صعبة وقاسية، بل قد تحسب مناوئة وشريرة: أننا نشارك في آلام المسيح لكي نقاد – بضيقات كثيرة – إلى المجد السماوي الذي دخله هو عبر متاهات الشر المتعددة (أع٤: ٢٢). وهذا ما يقوله بولس نفسه في موضع آخر: عندما نعرف شركة آلامه عندئذ ندرك قوة قيامته، وعندما نصير مثله في موته، عندئذ نصير جاهزين لكي نشارك في قامته المجيدة (في٣: ١٠- ١١) من يخفف عنا مرارة الصليب أنه كلما قسيت بلوانا، ازداد ثباتنا في شركة المسيح! إننا في شركتنا معه لا تقتصر الآلام عينها على أن تصير بركة لنا، بل إنها أيضًا تفيدنا جدًا بتعزيز خلاصنا.

٢- يقودنا الصليب إلى الثقة الكاملة بقوة الله

إلى ذلك، لم يكن ربنا بحاجة إلى معاناة حمل الصليب إلا ليبرهن إطاعته للآب وليشهد لها. أما لنا، فثمة أسباب عديدة لها ينبغي أن تجتاز حياتنا صليبًا مستمرًا. أولها أننا بطبيعتنا ميالون إلى أن نعزو كل شيء إلى أجسادنا. فإن لم يمكن ضعفنا ظاهرًا لأعيننا، إذا جاز الحديث، نقدر فضيلتنا بما هو أكبر من حجمها. ومهما يحدث، فلا شك في أنها تظل على ثبات قبالة كل المصاعب والمشقات. ومن ثم نسمو بذواتنا إلى ثقة عمياء وخالية المحتوى في الجسد،

وبر كوننا إلى تلك الثقة نتغطرس على الله نفسه، كما لو كانت قوانا كافية بدون نعمته.

ولكنه يستطيع أن يلجم عجرفتنا على أحسن وجه عندما يبرهن لنا بالاختبار، لا عن عجزنا الفادح فقط، بل عن الهشاشة التي نرزح تحتها أيضًا. لذلك يبتلينا إما بالخزي أو بالفقر أو بالحزن أو بالمرض أو بغير ذلك من فجائع. وفي حالة شللنا على احتمالها، إذا أصاب إحداها، سريعًا ما نذعن لها. وإذ نذل هكذا، نتعلم أن نستغيث بقوته التي – وحدها – تجعلنا نصمد إزاء بلوانا. ولكن حتى أكثر الناس قداسة، مهما أدركوا أنهم لا يثبتون باعتمادهم على قدرتهم بل على نعمة الله، يثقون بما يفوق الحدود بقوتهم وثباتهم، ما لم يأت بهم عبر تجربة الصليب إلى معرفة أعمق. لقد تسربت هذه النزعة من الرضا الذاتي حتى إلى داود إذ اعترف: "وَأَنَا قُلْتُ فِي طُمَأْنِينَتِي: [لاَ أَتَزَعْزَعُ إِلَى الأَبَدِ]. يَا رَبُّ بِرِضَاكَ ثَبَّتَّ لِجَبَلِي عِزّاً. حَجَبْتَ وَجْهَكَ فَصِرْتُ مُرْتَاعاً" (مز٣٠: ٦- ٧). إنه يعترف بأنه في رخائه أثملت أحاسيسه بالبلادة، بحيث اعتمد على ذاته حتى وعد نفسه بأنه لن يتزعزع إلى الأبد، هذا إذ تناسى نعمة الله التي كان أولى به أن يعتمد عليها. فإن كان هذا قد حدث لنبي عملاق كهذا، كيف لا يرتعب أي واحد منا ويحذر؟

في آونة الأمان، هكذا يعتزمون بثباتهم ورباطة جأشهم، ليتعلموا في بلواهم فقط أن هذا بجملته محض نفاق. أقول إذا المؤمنون اتعظوا بخطورة ما قد يصيبهم يتعجلون نحو الاتضاع بحيث يلجأون إلى نعمة الله، نافضين عن ذواتهم الثقة الخبيثة بالجسد. وعندما يلجئون إلى نعمة الله، يختبرون حضور القوة الإلهية التي يجدون فيها ما يكفي من الحماية ويزيد.

[نحتاج إلى هذا ليعلمنا الصبر والطاعة ٣- ٦]

٣- يسمح لنا الصليب بأن نختبر أمانة الله، ويمنحنا رجاءً للمستقبل

وهذا ما يعلم به بولس: "... الضِّيقَ يُنْشِئُ صَبْراً. وَالصَّبْرُ تَزْكِيَةً..." (رو٥: ٣- ٤)، وأن الله وعد أن يرافق المؤمنين في الضيق (قارن ٢كو١: ٤)، وهو ما يعرفونه عن اختبار، فيتذرعون بالصبر مدعومين بيد القدير، ويحتملون ما لم يكن احتماله مستطاعًا في حدود طاقتهم. عندئذ يختبرون بالصبر أن الله يؤازرهم – عند الحاجة – بالمعرفة التي وعد بها. ومن ثم أيضًا يتقوى رجاؤهم، إذ يُمسي من ذروة الجحود ألا يتوقعوا فيما بعد أن صدق الله لن يستمر أو يظل ثابتًا كما اختبروه قبلاً. والآن نرى كم من الخيرات المتناسقة تنبثق من الصليب! لأن الصليب – إذ ينقض ذلك الرأي المتعالي الذين نتبناه عن قدرتنا، وينزع القناع عن نفاقنا الذي ينشئ فينا نشوة الغرور – إنما يصوب سهمه إلى صميم ثقتنا المهلكة بالجسد – وإذ نتضع إزاءه يعلمنا أن نرتكز على الله وحده، وبذا لا نيأس ولا نخزى. وهذه الغلبة عينها تنشئ الرجاء، إذ إن الرب الذي أتم ما وعد به يثبت صدقه وأمانته فيما يأتي به المستقبل. فإن باتت هذه الأسباب هي الوحيدة، يبدو جليًا كم نحتاج إلى أن نمارس حمل الصليب!

كما أن تطهر من حبك الأعمى لذاتك هو أمر لا يزدري به، حتى تدرك عن قرب شديد مقدار عجزك، وبإدراك عجزك تتعلم عدم الثقة بالذات، وإذا ترتاب في قدرتك تتعلم أن تضع ثقتك في الله، وأن تركن بقلب واثق بالله، وتعتمد على معونته، وأن تتحمل غير مغلوب إلى المنتهى، وأن تتخذ مكانتك في نعمة الله فتستوعب صدق وعوده، وأن تتأكد بدون مساءلة من وعوده حتى يتقوى بها رجاؤك.

٤- يدربنا الصليب على الصبر والطاعة

لله قصد آخر لتجربة شعبه: وهو أن يختبر صبرهم، وأن يدربهم على الطاعة. لا يعني ذلك أنهم لا يستطيعون إبداء الطاعة له إلا بما أعطاهم، بل إنه قد سر ببراهين أكيدة أن يعلن ويبين النعم التي أغدقها على قديسيه حتى لا تبقى دفينة وعاطلة. لذلك إذ يكشف القدرة التي وهبها لخدامه على الاحتمال وثباتهم فيه، يجوز القول بأنه بذلك يمتحن صبرهم. وفي ذلك نجد هذه التعابير: إن الله امتحن إبراهيم فوجده بارًا في أنه لم يمسك أبنه الوحيد عنه (تك٢٢: ١، ١٢). كذلك يعلم بطرس أن إيماننا يمتحن بالتجارب كما يمتحن الذهب بالنار (١بط١: ٧). فمن يمكنه القول إنه ليس من المفيد أن توظف عطية الصبر الفائقة التي نالها المؤمن من الله، فتتجلى وتزهو؟ بيد أن البشر لن يقدروا عظمها ما لم تفعل.

ولكن مادام الله يفعل ما هو صواب وحق، إذ يعطي الفرصة فيحرك تلك الفضائل التي وهبها للمؤمنين حتى لا تظل دفينة - بل عميقة ثم تفنى - باتت الشدائد التي يجتازها القديسون والتي بدونها تنعدم فيهم الأناة، مبررة بما يكفي ويزيد. أقول إن الصليب يأمرهم بان يطيعوا، لأنهم بذلك قد تعلموا أن يحيوا لا كما يروقهم، بل بحسب إرادة الله. ومما لا ريب فيه أنه إن سارت الأمور بحسب ما يشتهون، فلن يعرفوا ما معنى أن يتبعوا الله. هناك مثل قديم يحث الإنسان على احتمال الشدائد يقول: "اتبع الله" بذلك لمح القدامى إلى أن الإنسان أولى أموره لنير الله فقط عندما أذعن يده وظهره لعصا تأديبه. فإن لاق جدًا أن نبرهن على طاعتنا لأبينا السماوي في كل الأمور، وجب علينا بكل تأكيد ألا نرفض أن يعودنا بكل وسيلة أن نخضع له طائعين.

٥- الصليب كدواء

إننا لن نقتنع بضرورة هذه الطاعة لحياتنا، إن لم نتفكر في آن معًا في مقدار قوة اندفاعنا الذي لا يعرف قيدًا، أن نخلع عن ذواتنا نير الله إذًا – ولو للحظة – ملنا لنزعة الجسد هذه أو أتحنا لها سبيلاً. إن هذا بعينه ما يحدث للخيول العنيدة، فإنها إذا قُيدت وظلت عاطلة بضعة أيام، لا يمكن فيما بعد ترويضها بسبب نشاطها المحتبس، كما لن تتعرف إلى راكبها الذي أطاعته من ذي قبل. وما يشكو الله منه في إسرائيل يستمر فينا. نسمن ونغلظ ونكتسب شحمًا فنرفس من أعطانا لنأكل ونتغذى (تث ٣٢: ١٥). في الحقيقة أنه كان ينبغي أن يجذبنا إحسان الله لنثمن ونحب جوده. أما لأن عنادنا يدفعنا إلى عكس ذلك، فيفسدنا مكررًا من جراء طول أناته، تحتم علينا أن نقيد بنوع من التأديب فلا نندفع إلى مثل ذلك اللعب الشهواني. هكذا، لئلا نتوحش فيما نغور في ملذات ثرائنا، ولئلا ننتفخ بما نحرز من شهرة وألقاب، ولئلا نتغطرس بما يتراكم لنا من امتيازات عقلية أو جسدية أو مادية، يواجهنا الرب نفسه، كيف يرى ملائمًا، كما يخضعنا ويكبح أجسادنا الجامحة، لدواء الصليب. وهذا يفعله بطرق متعددة بحس ما يراه ناجحًا لكل إنسان. لان كلاً منا لا يتألم بالدرجة نفسها من المرض الواح، أو يحتاج إلى العلاج المؤلم نفسه. من هذا يُرى أن البعض يمتحنون بنوع معين من الصليب، فيما يمتحن آخرون بغيره. ولما كان الطبيب السماوي يعالج البعض بمزيد من اللطف، وآخرين بعلاجات أكثر قساوة، بينما يشاء الصحة للجميع، فهو لا يترك أحدًا من دون أن يلمسه لأنه يعرف أن الجميع كلا بمفرده، في حاجة إلى الدواء.

٦- الصليب تأديب أبوي

إلى جانب ذلك، ثمة حاجة ألا يتوقف أبونا السماوي الكلي المراحم عند توقع ضعفنا، بل أن يصحح أيضًا تعديات ماضينا في كثير من الأحوال لكي يحفظنا لنفسه في طاعة لوصاياه. وبحسب ذلك كلما أصابنا البلاء، ينبغي أن نتذكر حياتنا الماضية توًا، فنجد أننا اقترفنا خطأ يستحق هذا النوع من التأديب. لكن لنتذكر أيضًا أن الوصية للاحتمال ليست دائمًا وفي المقام الأول مبنية على تعرفنا إلى الخطيئة، لأن الكتاب المقدس يعطي مفهومًا أفضل بكثير عندما يقول إن الرب يؤدبنا بالشدائد "لكيلا ندان مع العالم" (١كو١١: ٣٢). لذلك أيضًا يلزمنا في خضم قساوة التجارب أن نتعرف إلى لطف أبينا وسخائه، حيث إنه حتى في تلك الأحوال لا يكف عن تعزيز خلاصنا. فهو يبتلينا لا ليدمرنا أو ليفنينا، بل بالأحرى لكي يحررنا من الدينونة التي يدين العالم بها. تقودنا هذه الفكرة إلى ما يعلم به الكتاب المقدس في موضع آخر: "يَا ابْنِي لاَ تَحْتَقِرْ تَأْدِيبَ الرَّبِّ وَلاَ تَكْرَهْ تَوْبِيخَهُ. لأَنَّ الَّذِي يُحِبُّهُ الرَّبُّ يُؤَدِّبُهُ وَكَأَبٍ بِابْنٍ يُسَرُّ بِهِ" (أم٣: ١١- ١٢). فعندما نرى عصا الآب، أليس من واجبنا أن نظهر ذواتنا أبناء مطيعين وقابلين للتعليم بدلاً من أن نقلد – بعجرفة - أناسًا متهورين قست قلوبهم بانغماسهم في أفعال الشر؟ نحن إن انحرافنا عن الله، يفنينا إن لم يعد بنا إلى ذاته بالتأديب. ولهذا يقول – بحق – إن كنا بلا تأديب فنحن نغول لا بنون (عب١٢: ٨). لقد بلغنا أقصى حدود الفساد إذا كنا فيما أعلن نعمته لنا والعناية التي بها دبر خلاصنا، نعصى احتمال تأديبه. يعلمنا الكتاب المقدس أن هذا هو الفرق بين الأشرار والمؤمنين: الأولون – مثل عبيد لشر متأصل

ومستحكم – يسوؤون بالتأديب وتتصلب رقابهم. أما الأخرون – كأبناء أحرار – ففيه يرجعون إلى التوبة. فالآن أمامك أن تختار مع أي زمرة من هاتين تفضل أن تحصى. ولما كنت قد تحدثت عن هذا الأمر فيما سبق[1]، فسأتوقف ههنا مكتفيًا بهذه الإشارة الموجزة.

[حمل الصليب في ظروف الاضطهاد وغيره من البلايا ٧- ٨]

٧- التألم من أجل البر

لئن يتألم أحدهم من أجل البر، ففي ذلك عزاء نفيس. لأنه علينا أن نعي مدى الشرف الذي يغدقه الله علينا إذ يهبنا وسام جماعة جنده. أقول هذا لا عمن يشتغلون بالدفاع عن الإنجيل وحدهم، بل عن كل من ينخرطون في قضية البر فيتألمون من أجله. لذلك، سواء في المجاهرة بحق الله ضد أكاذيب إبليس، أو في النهوض بحماية الأبرياء والصالحين من اعتداءات الأشرار، لابد أن نتحمل كراهية العالم وتعدياته التي قد تشكل خطرًا على حياتنا أو ممتلكاتنا أو سمعتنا. دعونا لا نحزن أو ننزعج في تكريسنا طاقاتنا لله، أو نحسب ذواتنا تعساء في تلك الأمور التي بناء عليها صرح بأننا مطوبين (مت٥: ١٠). حتى الفاقة، ولو كانت في حد ذاتها بؤسًا، أو الاغتراب، أو الاحتقار، أو الحبس، أو الخزي، أو أخيرًا أن يصير الموت ذاته الطامة الكبرى. ولكن عندما ينفخ الله بفضله علينا، يتحول لنا كل من هذه إلى سعادة. عندئذ لنكتف بشهادة المسيح بدلاً من الزيف الذي يحسبه الجسد. عندئذ نفرح على مثال الرسول عندما

(١)انظر أعلاه؛ الكتاب الأول، الفصل ٨، الفقرة ٨. أيضًا الكتاب الثالث الفصل ٤ الفقرتين ٣١، ٣٥.

قال: "وَأَمَّا هُمْ فَذَهَبُوا فَرِحِينَ مِنْ أَمَامِ الْمَجْمَعِ لأَنَّهُمْ حُسِبُوا مُسْتَأْهِلِينَ أَنْ يُهَانُوا مِنْ أَجْلِ اسْمِهِ" (أع٥: ٤١). ماذا إذًا؟ فإن كنا أبرياء وذوي ضمير صالح فسُلبنا ممتلكاتنا بشر أناس عديمي التقوى، نعتبر تفهاء في أعين الناس. أما في حضرة الله في السماء فيزداد ثراؤنا الحقيقي. وإن طردنا من بيوتنا، ننضم توًا إلى أهل بيت الله. إن اقتلعنا واحتقرنا، فإننا نتأصل أعمق في المسيح. وإن وصمنا بالعار والخزي، فما نحن إلا أغنى في ملكوت الله. وإن قُتلنا يتسع بذلك مدخلنا إلى الحياة المباركة. فلنخجل إن حسبناه أكثر من هباء ووهم كل ما يغرينا في هذه الدنيا، وإن ازدرينا ما حسبه الرب كنزًا أعظم.

٨- يجد المسيحي عزاء في الله عندما يرزح تحت نير الصليب

بهذه التحذيرات وما يشابهها، يعطينا الكتاب المقدس وافر العزاء سواء في المهانة أو في البلايا التي نتحملها من أجل الدفاع عن البر. لذا ننكر الفضل على نحو مشين، إن لم نقبل تلك التجارب برضا وبسرور من يد الرب، وخصوصًا أن هذا النوع من الصليب يتميز به المؤمنون، وبه يشاء المسيح أن يتمجد فينا، تمامًا كما يعلم بطرس (١بط٤: ١٢ وما يلي). وبما أن العار أصعب على النفوس الشريفة أكثر من ألف ميتة، يحذرنا بولس على وجه التحديد بأننا سوف لا نتألم من جراء صفعات الاضطهاد فقط، بل من مواقف التعيير أيضًا، لأننا قد ألقينا رجاءنا على الله الحي (١تي٤: ١٠). وهكذا، في موضع آخر، يدعونا أن نسلك على مثاله بمجد وهوان، بصيت رديء وصيت حسن (٢كو٦: ٨).

لكن ذلك السرور لا يُطلب منا كي يمحو عنا كل إحساس بالمرارة والألم. وإلا، لا يكون ثمة احتمال لدى القديسين إلا إذا عذبهم الألم أو أكربتهم الشدة. لأنه

إن لم تكن للفقر قسوة، أو عذاب في المرض، أو وخزة للخزي، أو رعب من الموت، فما معنى الجلد أو الثبات في تحملها بلا مبالاة؟ أما لأن كلاً من هذه – فيما يحمل في طياته من مرارة – يمزق قلب كل منا، يظهر ثبات المؤمن عندما ينتابه شعور المرارة مهما اشتدت قسوتها، إذ يتغلب عليها بمقاومة باسلة. هنا يستعلن احتماله إذا نخس بحدة تكبحه مخافة الله عن أن يحمله ذلك على اقتراف فعل متهور. وهنا يسطع سروره، إذا ألم به الحزن والأسى عندما يركن إلى تعزية الله.

[يقابل المسيحي الألم كما من يد الله، ولكن بدون عدم الحس الرواقي ٩- ١١]

٩- المسيحي، على عكس الرواقي، يعبر عن ألمه وأساه

يصف بولس كفاح المؤمنين، عندما يناضلون سعيًا للصبر والثبات في وجه الشعور الطبيعي بالحزن، بهذه الكلمات المناسبة: "مُكْتَئِبِينَ فِي كُلِّ شَيْءٍ، لَكِنْ غَيْرَ مُتَضَايِقِينَ. مُتَحَيِّرِينَ، لَكِنْ غَيْرَ يَائِسِينَ. مُضْطَهَدِينَ، لَكِنْ غَيْرَ مَتْرُوكِينَ. مَطْرُوحِينَ، لَكِنْ غَيْرَ هَالِكِينَ" (٢كو٤: ٨- ٩). تلاحظ أن حمل صليبك بصبر، لا يعني أن تتخدر تمامًا أو أن تنمل أحاسيسك عن الشعور بالألم. فكم يختلف ذلك عما وصفه الفلاسفة القدامى بحُمق بـ "النفس السامية": أي كمن فقد جميع المعالم الإنسانية فكان كالحجر لا توجعه كما لا يبهجه ازدهار، لا تحزنه مرائر الزمن كما لا يشرح صدره إذا ابتسم له الدهر، ماذا أفادتهم تلك الحكمة الرفيعة؟ لقد رسموا صورة للاحتمال لم يرد لها مثيل في عالم البشر، ويستحيل منالها. بل إذ أرادوا أن يكون لهم احتمال دقيق المعالم ومحدد التفاصيل، نفوا قوته من الحياة البشرية.

أما الآن فقد استجد بين المسيحيين صنف آخر من الفلاسفة ممن يحسبونه ضلالاً، ليس أن يئن الإنسان ويبكي فقط، بل أن يحزن ويقلق أيضًا. تنطلق هذه التناقضات في معظمها من أناس عاطلين ينشغلون بالحدس أكثر مما بالعمل، فلا يمكنهم إلا أن يخترعوا متناقضات كهذه. أما نحن فلا علاقة لنا بهذه الفلسفة الجامدة التي أدانها ربنا وسيدنا، ليس بكلماته فحسب، بل أيضًا بمثاله. فلقد أنَّ وبكى متألمًا في محنته كما ندب محن الآخرين. وعلم تلاميذه كذلك، قال: "ستبكون وتنوحون والعالم يفرح" (يو١٦: ٢٠). ولكن لكي لا يحول أحد ذلك إلى عيب، جاهر علانية: "طوبى للحزانى" (مت٥: ٤). لا عجب! إن كان كل البكاء يُلام، فماذا نقول عن الرب نفسه الذي سالت من جسده دموع دماء (لو٢٢: ٤٤)؟ إن كان كل الخوف يُحسب عدم إيمان فكيف نتعامل مع تلك الرعدة التي ضُرب بها (مت٢٦: ٣٧؛ مر١٤: ٣٣)؟ وإن كنا نبغض كل حزن، فكيف يسعدنا اعترافه بأن نفسه "حزينة جدًا حتى الموت" (مت٢٦: ٣٨)؟

١٠- الحزن الحقيقي والصبر الحقيقي يتصارعان معًا

قررت أن أقول هذا حتى أرد أذهان الأتقياء عن اليأس، ولئلا يهجروا مسعاهم إلى الصبر بسبب عدم قدرتهم على الشعور الطبيعي بالحزن. فهذا يحدث بالضرورة لمن يجعلون من الصبر عدم إحساس، ومن بسالة رجل وثباته حجرًا. لأن الكتاب المقدس يمدح تحمل القديسين لصمودهم إزاء البلوى التي تصيبهم. فإذ تطعنهم المرارة، يغمرهم في ذلك الحين فرح روحي، وعندما يروعهم القلق يتنفسون الصعداء لدى انتعاشهم بتعزية الله. ومع ذلك، يعتري قلوبهم تناقض بين إحساسهم الطبيعي الذي يحاول التهرب خوفًا مما ينغصه،

وبين استمالتهم إلى التقوى التي تدفعهم حتى في شدائدهم نحو إطاعة المشيئة الإلهية. يعبر الرب عن هذا الصراع عندما يقول لبطرس: "لَمَّا كُنْتَ أَكْثَرَ حَدَاثَةً كُنْتَ تُمَنْطِقُ ذَاتَكَ وَتَمْشِي حَيْثُ تَشَاءُ. وَلَكِنْ مَتَى شِخْتَ فَإِنَّكَ تَمُدُّ يَدَيْكَ وَآخَرُ يُمَنْطِقُكَ وَيَحْمِلُكَ حَيْثُ لاَ تَشَاءُ" (يو ٢١: ١٨). من المستبعد أن بطرس، عندما حانت ساعة تمجيده لله بالموت، كان يجر إليه معاندًا ومقاومًا، وإلا فلم يكثر المديح لاستشهاده. لقد أطاع الأمر الإلهي بأقصى ما يفيض به القلب من حماسة واتقاد، إلا أنه إذ لم يكن بعد قد خلع عنه طبيعته البشرية، مكان في صراع بين إرادتين. فإنه إذ كان يتفكر في تلك الميتة الشنيعة التي كان يواجهها والتي أوقعت في نفسه الرعب، كم كان يشتهي أن يهرب! أما من جانب آخر، إذ خطر على ذهنه أنه مدعو إليها بأمر إلهي فتغلب على خوفه دائسًا إياه تحت قدميه، فقد أقبل عليها راضيًا بل فرحًا. هذا إذا ما ينبغي أن نحاول فعله إن كنا نريد أن نكون تلاميذ للمسيح، لكي تتشرب عقولنا الوقار والطاعة لله، بحيث نستطيع أن نروض بل نُخضع لأوامره كل ميل مُضاد. وهكذا يمكننا أن نثبت في احتمالنا مهما كان نوع الصليب الذي نعاني منه، حتى لو كان ذلك من أشد عذابات النفس. هذا لأن الضيقات ذاتها سوف تأتي بمنغصاتها، فإن ابتلينا بالمرض فسوف نئن ونتوجع ونتوق إلى الصحة، ومن ثم نرزح تحت وطأة الفقر فتخزنا سهام الهم والأسى، وهكذا ينتابنا ألم المهانة والاحتقار والظلم، وكذلك سوف نذرف دموعًا كما تتطلب طبيعتنا البشرية عند حضورنا جنائز أعزاءنا. ولكن ينتهي بنا القول أخيرًا إلى أنها مشيئة الرب فلنخضع لإرادته. إنه في الحق، وسط وخزات الألم، ووسط الأنين والدموع ينبغي أن تتخلل أفئدتنا هذه الفكرة: أن نُميل قلوبنا إلى أن تتحمل بسرور تلك الضيقات التي اعترتنا.

١١- الصبر من منظور الفلسفة والفهم المسيحي

أما الآن، وقد اتخذنا العلة الرئيسية لحمل صليبنا من وحي المشيئة الإلهية، فقد لزم أن نميز في بضع كلمات الفرق بين المفهوم الفلسفي للصبر والمفهوم المسيحي له. مما لا ريب فيه أن القليلين من الفلاسفة ارتقوا إلى مستوى رفيع كهذا من المنطق، حتى يفهموا أننا مجربون بيد الله من خلال شدائدنا، وأن يحسبوا أنه من هذا المنطلق ينبغي أن نطيع الله. ولكنهم، علاوة على ذلك، لا يقدمون لها سببًا سوى أنه هكذا كان ينبغي أن يكون. ما عسى أن يكون هذا إلا أن يقال لك ينبغي أن تخضع لله لأنك تحاول عبثًا أن تقاومه؟ إن كنا نطيع الله من قبيل الضرورة فحسب، في حين كان يُسمح لنا بالهروب، فسوف نكف عن إطاعته. أما الكتاب المقدس فيدعونا أن نتأمل في إرادة الله شيئًا مختلفًا جدًا: ألا وهو أولاً البر والعدالة، ثم الاهتمام بخلاصنا من هذا النوع، إذًا، هو الحث المسيحي على الصبر. ومن ثم إذًا الوصايا بالاحتمال. فسواء كنا نعاني الفقر أو المنفى أو السجن أو الإهانة أو المرض أو الحزن أو غير ذلك، ينبغي أن نعتقد بأنه لا يحدث شيء من دون مشيئة الله وعنايته، وأنه لا يفعل شيئًا إلا من قبل نظام عدالته. ماذا إذًا؟ ألا تستحق تعدياتنا اليومية العديدة أن تُعاقب بقضبان أكثر قساوة من الشدائد التي يوقعها علينا من فرط لطفه؟ أليس من كامل الإنصاف أن تُروض أجسادنا وتعتاد، إن جاز القول، النير لئلا تجمح في شهواتها بحسب طبيعتها الباطنة؟ ألا يستحق عدل الرب وحقه ما يصيبنا من مصاعب؟ لكن لما كان عدل الله المؤكد يظهر في الشدائد، فلن يمكننا أن نتذمر أو نقاومه من دون أن نخطئ. من ثم لا نُصغ إلى تلك التعويذة العقيمة القائلة

بأنه "ينبغي أن نخضع لأنه يجب الخضوع"، بل لنستمع للمبدأ الحي وذي الأثر المفيد الذي يقول: "يلزمنا أن نطيع لأنه من المحرم أن نقاوم، ويلزمنا أن نحتمل بصبر حيث إن في نفاذ الصبر إهانة لبر الله".

وحيث إننا نسر بما ندرك أنه لخلاصنا ولمصلحتنا، يعزينا أبونا العظيم المراحم في هذا المجال، أيضًا، إذ يؤكد لنا أنه يعمل لخلاصنا في كل صليب يجربنا به. هذا وإن توضح لنا أن شدائدنا إنما تعمل لمصلحتنا، فلماذا لا نجتازها بعقل شاكر مطمئن؟ لذلك نحن في احتمالنا ضيقاتنا بالصبر، لا نذعن للضرورة بل نقبلها برضا لأجل خيرنا. أقول إن هذه الأفكار تحملنا على الإدراك أنه مهما أجبرنا على حمل صليبنا على الشعور الطبيعي بالمرارة والأسى، فلسوف يبهج الفرح الروحي مشاعرنا بالمقدار نفسه. ومن هذا ينبع أيضًا الشكر الذي لا يمكن أن يحدث من دون فرح، ولكن مادام حمدُ الرب وشكره لا يفيضان إلا من قلب فرح مسرور - ولا يوجد فينا شيء يعوق ذلك - يتبين كم هو ضروري أن تلطف المرارة بالفرح الروحي!

الفصل الرابع

تأمل في الحياة الآخرة

الأقسام الثلاثة لهذا الفصل – أولًا، يتمثل الاستخدام الأساسي للصليب في أنه، بطرق مختلفة، يعودنا على ازدراء الحاضر، ويحفزنا للتطلع إلى الحياة المستقبلية (الآخرة) (الأجزاء ١، ٢) ثانيًا، عند الانسحاب من الحياة الحاضرة يجب ألا نتجاهلها ولا نشعر بالكراهية تجاهها. ولكن إذا كنت ترغب في الحياة الآخرة، فاخرج بكل سرور من الحاضر بحسب وصية سيدنا صاحب السيادة (الأجزاء ٣، ٤). ثالثا، وصف ضعفنا حيث الرهبة من الموت. التصحيح والعلاج الآمن (الجزء ٦).

[بالشدائد يفطمنا الله عن الحب المفرط لهذه الحياة الحاضرة ١- ٢]

١- هوان هذه الحياة

أيًا كان نوع الشدة التي تؤلمنا، يلزمنا أن نصبو إلى هذا الهدف: أن نعود ذواتنا ازدراء الحياة الحاضرة، وأن يحفزنا ذلك على التأمل في الحياة الآتية. فحيث إن الله هو أفضل من يعلم كم نحن ميالون بطبيعتنا إلى حب بهيمي لهذا العالم، فإنه يسخر أنسب وسيلة ليجذبنا بعيدًا عنه لينفض عنا بلادتنا لئلا نتشبث بذلك الحب أكثر مما ينبغي. حقًا، ليس ثمة واحد منا لا يرغب في أن يظهر طوال حياته أنه يطمح، بل يسعى إلى الخلود السماوي. لأنه من العار

ألا نكون أفضل من الوحوش التي لم تكن أدنى منا حالاً، إن لم يبق لنا رجاء للأبدية بعد الموت. لكن إذا عاينت مخططات أي إنسان أو مساعيه أو أفعاله، فلن تجد سوى الأرضيات. أما حماقتنا فتنبع من كون عقولنا تخمد إذ يبهرها زيف لمعان الغنى والقوة والجاه، بحيث لا يمكنها أن ترى ما هو أبعد من هذه. وكذلك القلب، مُحتلاً بالجشع والطموح والشهوة، يثقل بحيث لا يمكنه أن ينهض، وأخيراً النفس بجملتها، إذ تحبل في شُرُك الجسد، تسعى إلى سعادتها على الأرض. ولمجابهة هذا الشر، يعلم الرب أتباعه هو أن الحياة الحاضرة ببراهين شقائها المستمر. لذا لكيلا يعدوا ذواتهم بسلام عميق ومطمئن فيها، كثيراً ما يسمح بأن يجربوا بالبلوى والضربات من حرب أو سرقات أو ما إلى ذلك من خسائر. ولكيلا يتلهفوا بكثير من شوق إلى الثروات الزائلة، أو يستندوا إلى ما لديهم من ممتلكات، فقد يخفضهم إلى منزلة الفقر، تارة بالتشرد وطوراً بجذب الأرض وتارة بحريق أو بوسائل أخرى، أو على الأقل قد يحصرهم في وضع أدنى. ولكيلا يتلذذوا بلا مبالاة في خيرات حياتهم الزوجية، قد يسب ما يزعجها بانحراف الزوجة أو بخزيهم بنسل فاجر، أو يبلوهم بالحزن. ولكن إن كان في كل تلك الحالات رؤوفاً بهم، ومع ذلك لكيلا يتباهوا في رضاهم الذاتي، يريهم سواء بالمرض أو بالأخطار، كم تتقلب الأحوال وتتلاشى الملذات التي تؤول جميعها إلى الممات.

عندئذٍ فقط نتقدم على النحو الصحيح بتأديب الصليب، لما نتعلم أن هذه الحياة في حد ذاتها مضطربة ومتقلبة وشقية من جهات لا تحصى، وليست سعيدة بأي حال من الوضوح، وأن كل ما بها مما يظن أنه من خيراتها مشبوه، فإن تفسده عوامل ممتزجة من الشر. خلاصة القول إن علينا في هذه الحياة

ألا نسعى إلى شيء باق، وألا ننتظر منها شيئًا سوى العناء، وأنه عندما نفكر في إكليلنا، علينا أن نرفع عيوننا إلى السماء. فينبغي أن نؤمن بهذا. أن الذهن لا يوقظ على نحو جدي ليرغب الحياة الآتية ويتأمل فيها، إن لم يكن قبلاً قد تشبع بازدراء الحياة الحاضرة.

٢- ميلنا الطبيعي إلى تجاهل بطلان هذه الحياة

ليس ثمة موقف وسيط بين هذين الطرفين: إما أن يصير العالم تافهًا في أعيننا، أو أنه يستعبدنا لذاته بحبنا المدمن له. ولهذا، إن كنا نُعير الأبدية أي اهتمام، لزم علينا أن نسعى جاهدين لطرح حبائله الشريرة عنا. ولما شكلت لنا الحياة الحاضرة الكثير من المغريات التي تفتننا بها، والعديد من مظاهر البهجة والحسن وحلاوة المذاق، يفيدنا جدًا أن تصرف أذهاننا عنها تكرارًا لكيلا تأسرنا بما يخاطب شهواتنا. أسألك، ماذا يحدث إذًا، لو تمتعنا هنا بثروة طائلة وبسعادة دائمة بحيث لا نستطيع، على الرغم من الشر الذي ينغصنا بلا انقطاع، أن نتيقظ بما يكفي لنفكر مليًا في بؤس هذه الحياة؟

إن كون الحياة البشرية كدخان (مز١٠٢: ٣) أو كظل (مزم١٠٢: ١١) جليٌّ، لا للمثقفين فحسب، بل حتى للبسطاء الذين يفهمون معنى تلك الأمثلة المألوفة. وإذا حسب هؤلاء معرفة ذلك أمرًا مفيدًا، وضعوه في أقوال وحكم مأثورة. ومع ذلك يكاد ألا يكون هنالك من شيء نهمله أكثر من ذلك أو نتذكره أقل. فإننا نشرع في كل شيء كما لو كنا نوطد لأنفسنا البقاء على الأرض. على أننا إن صادفنا جثمانًا يُدفن، وإن سرنا بين المقابر فتبصر عيوننا صورة الموت، اعترف أننا نتفلسف ببراعة عن فناء هذه الدنيا. وحتى هذا نحن لا نفعله على نحو

مطرد، حيث إن كل هذه الأمور لا تؤثر فينا مثقال ذرة. ولكن إن تفلسفنا هكذا، فلمجرد لحظة ثم تتلاشى فلسفاتنا حالما نولي ظهورنا، غير تاركة وراءها ضئيل أثر في ذاكرتنا. وأخيرًا، مثل التصفيق في المسرح عند نهاية أداء ممتع، تتبخر. وهكذا ناسين الموت، وكذلك فناء الدنيا نفسها، كما لو لم يخطر لهما على بالنا ذكر، نعود إلى ثقتنا الغافلة بديمومة الحياة على الأرض. وإن نعق أحدهم في تلك الأثناء بالمَثل "إنما الإنسان مخلوق ليوم" فنقر بتلك الحقيقة، ولكن من دون أن نعيها، فيما تبقى فكرة الدوام ثابتة في أذهاننا. من إذًا يستطيع أن ينكر أنه يجدر بنا جميعًا أن نقتنع ببؤس الحياة الدنيا، لا بمجرد كلمات التحذير، بل بكل الاختبارات التي يمكن أن تحدث، ومع ذلك، على الرغم من أننا قد نقتنع، يندر أن نكف عن افتتاننا الدنيء والأحمق ببريقها، كما لو كانت تشتمل في ذاتها على الغاية العظمى لجميع الخيرات؟ أما إن كان الله ليعلمنا فبالتالي يجب علينا أن نصغي إليه مناديًا إيانا، نافضًا إيانا من بلادتنا عسانا نحتقر العالم ونسعى بكل قلوبنا إلى التفكر في الحياة العتيدة.

[التقدير الصحيح للحياة الحاضرة – حيث إنها عابرة وغير مُشبعة – تقودنا إلى التأمل في الحياة العتيدة ٣- ٦]

٣- الإقرار بالفضل من أجل الحياة الدنيا!

ليعود المؤمنون ذواتهم احتقار الحياة الدنيا من دون أن يولد فيهم بُغضًا أو جحودًا نحو الله. في الحقيقة، هذه الحياة الحاضرة، مهما امتلأت من شقاوة لا تتناهى، لا تزال تُحصى بحق بين بركات الله التي يجب ألا نكفرها. لذلك إن لم نتعرف فيها إلى إحسان إلهي صرنا مذنبين بنكران صنيع الله نفسه. فبالنسبة

إلى المؤمنين على الأخص، ينبغي أن تكون نعمة الحياة شهادة للإحسان الإلهي، تهدف بكليتها إلى تعزيز فرص خلاصهم. فقبل أن يكشف الله لنا علانية عن ميراث المجد الأبدي، يشاء ببراهين أقل شأنًا أن يرينا أبوته لنا. وهذه هي الإحسانات التي يسبغها علينا يومًا بعد يوم. ولما كانت هذه الحياة تفتح لنا مجالاً لإدراك جود الله، فهل يجوز أن نجحف بحقها كما لو كانت خالية تمامًا من أي خير في ذاتها؟ إذًا يلزم أن نميل أذهاننا لنحسبها ضمن هاتيك الهبات التي تنهمر من جود الله وينبغي ألا ترفض. فإن لم يزخر الكتاب المقدس بالشواهد، على الرغم من ثرائه بها ووضوحها جميعها، فالطبيعة نفسها تحثنا على أن نشيد بفضل الرب إذ أتي بنا إلى نور هذه الحياة، ومنحنا أن نستثمر خيراتها كما منح كل ما كان ضروريًا للحفاظ عليها.

كما أن سببًا أعظم من كل ذلك لقضاء فريضة إحسانه هو أن نتأمل - إن جاز القول - في كونها تجهزنا لأمجاد الملكوت السماوي. فلقد رسم الرب أن الذين سوف يتوجون يومًا في السماء، ينبغي أن يجتازوا أولاً عناء الأرض لكيلا يعلنوا نصرتهم، إلا بعد أن يكونوا قد تغلبوا على شدائد الحرب وأحرزوا الانتصار.

كما أن هنالك سببًا آخر: إننا نبدأ في هذه الحياة تذوق حلاوة الجود الإلهي في إحسانات الله المتعددة، لكي توقد رجاءنا ورغبتنا في السعي لاستعلانه الكامل. فعندما نكون متأكدين من أن الحياة التي نحياها على الأرض عطية من نبع لطف الله، إذ نحن مدينون له بها، ينبغي أن نتذكر إحسانه ونكون شاكرين. عندئذ سوف نتفكر - في حينه - حالتها البائسة لكي نتحرر فعلاً من رغبة زائدة عما يلزم لها، لأننا - كما قلنا - ميالون بطبيعتنا إلى تلك الرغبة.

٤- الاشتياق الصحيح إلى الحياة الأبدية

والآن ينبغي أن تزداد رغبتنا في حياة أفضل بقدر ما نقلل من حبنا الباطل لهذه الحياة. إني أعترف بأنني أعجبت بحكمة الذين ظنوا أن الأفضل لهم كان لو لم يولدوا، أو ما يأتي بالدرجة الثانية، الذين يموتون سريعًا بعد ولادتهم (جا٤: ٢). فلما كانوا قد حرموا من نور الله والدين الصحيح، ماذا كانوا يستطيعون أن يروا فيه سوى ما كان منفرًا ومقيتًا؟ ولم يتصرف بدون عقل من رحبوا بميلاد ذويهم بالحزن والدموع، وودعوا موتاهم بفرح وقور. ولكن لم يفيدوا بذلك من شيء لأنهم، إذ لم يكن لهم التعليم الصحيح عن الإيمان، لم يدركوا كيف يمكن لشيء غير مبارك أو غير مرغوب في حد ذاته أن يتحول إلى شيء نافع للأتقياء. وهكذا كانت نهاية حكمتهم.

لذا ليكن هدف المؤمنين في تقييمهم للحياة الفانية أنه، فيما يدركون أنها في ذاتها لا تتجاوز كونها شقاء محضًا، عليهم أن يجنحوا كليًا في عجلة واشتياق أعظم إلى التأمل في تلك الحياة التي تأتي بعد. فإن كنا لنقارن هذه الحياة بالحياة الآتية، يجوز القول باطمئنان إنه لا يمكننا إهماله فقط، بل احتقارنا كليًا وعيفها عيفًا. لأنه إن كانت السماء موطننا، فما الأرض لنا سوى منفى؟ وإن كان الرحيل من العالم مدخلاً إلى الحياة، فما العالم سوى قبر، وما هو استمرار العيش سوى الانغماس في الموت؟ وإن كان التحرر من الجسد انطلاقًا إلى الحرية التامة، فماذا يسمى الجسد إلا سجنًا؟ وإن كان التمتع بالوجود في حضرة الله هو ذروة السعادة، أفلا يكون الحرمان من ذلك الشقاء بعينه؟ ولكننا إلى أن نرحل عن العالم "نحن متغربون عن الرب" (٢كو٥: ٦).

لذلك فإن الحياة الدنيا، إذا قورنت بالسماوية، لا شك أنها توًا تحتقر وتداس تحت الأقدام. ينبغي طبعًا ألا تكره أبدًا إلا فيما تخضعنا لسلطان الخطيئة، ورغم ذلك لا يجوز أن نوجه كراهيتنا إلى الحياة نفسها، حتى في حال كرهنا إياها لكوننا عُرضة للخطيئة ما بقينا في حياتنا الأرضية. وعلى أي حال، يليق بنا أن يُحل بنا الإعياء منها، حتى كوهها، إذا اشتهينا نهايتها، نتأهل للملكوت فيها بحسب مسرة الرب، لكي لا يقودنا إعياؤنا إلى التذمر ونفاذ الصبر. هذا لأنها تشبه مركز حراسة عيننا فيه الرب، من شأنه أن نظل فيه إلى حين يشاء هو أن يدعونا إلى ذاته. يندب بولس حظه إذ ظل طويلاً مكبلاً بفيد الجسد، كما يتوق إلى التحرر منه (رو٧: ٢٤). ومع ذلك، لكي يطيع أمر الله، يعلن أنه محصور بين الحياة والموت ولكنه مستعد لأي منهما (في١: ٢٣، ٢٤). هذا لأنه يعترف بأنه مدين لله بأن يمجد اسمه سيان كان ذلك بالموت أو الحياة (رو١٤: ٨). ولكن الله وحده هو من يقرر الأفضل لمجده. وهكذا فإن كان لائقًا بنا أن نعيش ونموت للرب، فلنترك لقراره ساعة موتنا وحياتنا، ولكن في كلتا الحالتين لتلتهب غيرتنا صوب الموت والتأمل بلا انقطاع. أما بالمقارنة بالخلود العتيد فلنستخف بهذه الحياة ولنشته أن نعتزلها بسبب عبودية الخطيئة حينا يسر الرب.

٥- لا للخوف من الموت

إنه من الخطأ الفظيع أن الكثيرين ممن يتباهون بمسيحيتهم، يسيطر عليهم خوف عظيم من الموت بدلاً من الاشتياق إليه، إلى درجة أنهم يرتعدون عند مجرد ذكره، كما لو كان شيئًا رهيبًا ومأسويًا إلى أبعد الحدود. لا ريب أنه من غير المدهش إن كنا في وعينا الطبيعي نقشعر رعدة أمام فكرة انحلالنا. ولكنه

مما لا يحتمل إطلاقًا، ألا يوجد في قلوب المؤمنين أي شعاع من التقوى للتغلب على ذلك الخوف وإخماده، أيًا كان، بتعزية أقوى. فإذا اعتبرنا أن هذه الخيمة - خيمة جسدنا - المعيبة والقابلة للفساد والعفن والزوال، الدائمة الانحلال والاضمحلال، سوف تتحول توًا إلى مجد سماوي راسخ غير قابل للفساد، ألا يدفعنا الإيمان إلى أن نسعى جاهدين نحو ما تقشعر له طبيعتنا الواهنة؟ وإن كان لنا أن نفكر أننا من خلال الموت نعبر من المنفى إلى الوطن، إلى الوطن السماوي أفلا نتعزى بتلك الحقيقة؟

ولكن يعترض البعض بأن لا شيء يخلو من رغبة البقاء. وأنا أتفق معه طبعًا، ولذا أصر على أنه يلزمنا أن نعمل حسابًا للخلود الآتي، حيث سيكون لنا حال راسخ لا مثيل له على الأرض. وهذا ما يعلم به بولس مؤكدًا أن المؤمنين يئنون مشتاقين إلى الموت، ليس إلى أن يخلعوا الجسد ولكن إلى أن يلبسوا فوق خيمتهم الأرضية مسكنًا في السماء، وإن كانوا لابسين فلن يوجدوا عراة (٢كو٥: ٢- ٣). البهائم وحتى الجماد من المخلوقات - الأشجار والأحجار - لو أدركت حقيقة فراغ وجودها الحاضر، هل تشتاق إلى اليوم الآخر والقيامة، لكي تتحرر من الفراغ مع أبناء الله (رو٨: ١٩وما يلي)؟ هل نرتقى نحن الذين وهبنا نور الفهم، وفوق الفهم استنرنا بروح الله! هلا نرتقي نحن بأذهاننا إلى ما وراء اضمحلال جسدنا الأرضي، وخصوصًا أن جوهر كياننا عينه مرهون بحقيقة الحياة الأبدية.

على أنني لست أرمي إلى مجادلة هذه الضلالة الجسيمة، وليس هذا هو المجال لذلك. فمن البدء أشرت إلى أنني لا أريد أن أفتح نقاشًا مفصلاً

للموضوعات المألوفة لذلك أكتفي بأن أشير على بسطاء العقول من هؤلاء بأن يقرأوا مقال قبريانس "في الفنائية"، إلا إذا استحقوا أن يرسلوا إلى الفلاسفة حيث تحمر وجوههم عندئذ من فرط ازدراء أولئك [الفلاسفة] الموت.

فلنعتبر هذا الأمر مبتوتًا أن أحدًا لا يحرز تقدمًا في مدرسة المسيح، إن لم يكن ينتظر بفرح يوم الممات والقيامة الأخيرة. كذلك يميز بولس جميع المؤمنين بهذه العلامة (تي٢: ١٣؛ قارن ٢تي٤: ٨)، كما يذكرنا بها السفر المقدس اعتياديًا كلما تظهر لنا برهانًا على السعادة الكاملة. يقول الرب: "... فَانْتَصِبُوا وَارْفَعُوا رُؤُوسَكُمْ لأَنَّ نَجَاتَكُمْ تَقْتَرِبُ" (لو٢١: ٢٨). أسألكم هل يعقل أن ما قصد الرب أن يبعث به فينا البهجة والفرح، لا يولد فينا سوى الحزن والأسى؟ إن كان الأمر كذلك، فلماذا لا زلنا نتفاخر به سيدًا لنا؟ لنتخذ لأنفسنا إذًا نظرة أصوب، حتى على الرغم من ميل رغبة الجسد العمياء والحمقاء إلى المقاومة، فلا نتردد في انتظار مجيء الرب، ليس بالاشتياق فحسب، بل بآنات وتنهدات، إذ ذاك هو عين السعادة والفرح. فلسوف يأتي مخلصًا وفاديًا فينتشلنا من هذه الهاوية السحيقة، هاوية الشرور والبلايا جمعاء، وسيقتادنا إلى ذلك الميراث المبارك، ميراث حياته ومجده.

٦- الراحة المعدة للمؤمنين في طموحهم إلى الحياة الآتية

إنه لأمر واضح أن جماعة المؤمنين بأسرها، مادامت تقيم على هذه المسكونة، ينبغي أن تحسب "مثل غنم للذبح" (رو٨: ٣٦) على مثال المسيح رأسها. لذلك كان لهم أن يصيروا أشقى جميع الناس، لو لم يتغلبوا بعزيمة قوية على كل ما في هذا العالم فتجاوزوا كل جانب من شواغله. بل على العكس فإنهم عندما رفعوا

رؤوسهم فوق كل ما هو أرضي – حتى إن كانوا يبصرون ازدهار الأشرار في الثروة والجاه، ويرونهم مغمورين في سلام عميق، متفاخرين ببهاء ترف ممتلكاتهم، مفعمين بملذات حياتهم، بل وإن حل بهم الاضطراب من جراء غي هؤلاء، وإن تحملوا مهانة فظاظتهم، وإن وقعوا فريسة لجشعهم أو أنهكتهم شرور أفعالهم المفرطة – لا ريب في أنهم سوف يتحملون تلك الهموم بلا صعوبة أيضًا. لأن ذلك اليوم الذي عينه الرب ليرحب بخائفيه إلى سلام ملكوته ظل يتجلى نصب أعينهم، وسوف "يمسح الله كل دمعة من عيونهم" (رؤ٧: ١٧؛ قارن أش٢٥: ٨)، وسوف يلبسهم رداء المجد... والابتهاج" (سيراخ ٦: ٣٢) وسوف يطعمهم بأحلى طيباته، ويسمو بهم إلى شركته العلياء – وأخيرًا يتنازل بأن يجعلهم شركاء في سعادته. أما أولئك الأشرار الذين يتباجحون في الأرض فسيلقى بهم إلى الخزي المشين، وسيحول بهجاتهم إلى عذاب أليم، وطربهم إلى بكاء وصرير أسنان، وسوف يزعج سلامهم بتعذيب ضمائرهم، ويجازي عبثهم بنار لا تنطفئ (قارن إش٦٦: ٢٤؛ مت٢٥: ٤١؛ مر٩: ٤٣، ٤٦؛ رؤ٢١: ٨)، كما سيُحنى رؤوسهم خضوعًا للأتقياء الذين كانوا قد استنفذوا صبرهم. فكما يشهد بولس، هذه هي عدالة الله "... أَنَّ الَّذِينَ يُضَايِقُونَكُمْ يُجَازِيهِمْ ضِيقاً، وَإِيَّاكُمُ الَّذِينَ تَتَضَايَقُونَ رَاحَةً مَعَنَا عِنْدَ اسْتِعْلاَنِ الرَّبِّ يَسُوعَ مِنَ السَّمَاءِ ..." (٢تس١: ٦- ٧).

هذه حقًا هي راحتنا الوحيدة. فإن أخذت منا، فإما تقنط عقولنا أو لدمارنا يأسرها الفراغ عزاء هذا العالم. فحتى النبي يعترف بأن كادت تزل قدماه إذ ظل طويلاً يتأمل سلامة الأشرار (مز٧٣: ٢- ٣)، ولم يدرك ذلك حتى دخل مقادس الله وانتبه إلى آخرتهم (مز٧٣: ١٧). وفي كلمة الختام: إذا تحولت عيون الأتقياء إلى قوة القيامة، فلسوف يتغلب صليب المسيح أخيرًا على الشيطان والجسد والخطيئة كما على الأشرار.

الفصل الخامس

كيف ينبغي أن نستخدم الحياة الحاضرة وما تتيحه من معونة؟

أقسام هذا الفصل هي: ١ ضرورة وفائدة هذه العقيدة. يجب تجنب التطرف، إذا أردنا استخدام خيرات الحياة الحالية ووسائل الراحة الخاصة بها (الأجزاء ١، ٢). ٢ أحد هذه التطرفات التي يجب تجنبها هي شهوة الجسد. أربع طرق للقيام بذلك موصوفة بالترتيب (الأجزاء ٣-٦).

[خيرات هذه الحياة هي للتمتع بها كعطايا من الله ١- ٢]

١- خطر مزدوج: التزمت الخاطئ واللين الخاطئ

يعلمنا الكتاب المقدس في بساطة وعلى نحوٍ وافٍ، كيف يجب أن نستعمل خيرات الأرض استعمالاً صحيحًا – مما ينبغي ألا نهمله في تنظيم حياتنا. لأنه إن كنا لنعيش يلزمنا أيضًا أن نستخدم الفوائد الضرورية للحياة. كما لا يمكننا أن نتجنب تلك الأشياء التي تفيد اللذة أكثر مما تفيد الضرورة. لذلك يجب أن نلتزم مقياسًا ينتظم به استعمالنا لها بضمير صافٍ، سواء للضرورة أو للتمتع. ولقد وضع الرب ذلك المقياس عندما علم بأن الحياة الحاضرة هي لشعبه مثيل رحلة بها يسرعون نحو الملكوت السماوي (لا٢٥: ٢٣؛ ١أخ٢٩: ١٥٤؛ مز٣٩: ١٣؛ ١١٩: ١٩؛ عب١١: ٨- ١٠، ١٣- ١٦؛ ١٣: ١٤؛ ١بط ٢: ١١). فإن كنا نمر مرورًا في هذا العالم، فلا شك في أنه يلزمنا أن ننتفع من خيراته بقدر ما تفيدنا بدون أن تعوق

مسيرتنا. فهكذا يقنعنا بولس بحيث نستعمل هذا العالم كأننا لا نستعمله، ونشتر بضائعه بالفكر نفسه الذي به يجوز أن نبيعها (١كو٧: ٣٠- ٣١).

أما لأن هذا موضوع زلق وقابل للانحدار إلى الخطأ من كلا جانبيه، فلنحاول أن نثبت أقدامنا حيث يمكننا الوقوف راسخين. لقد أراد بعض الصالحين أن يصححوا هذا الشر الخطير، عندما شاهدوا تلف الإسراف والإفراط في إشباع الملذات بدون قيد أو كبح. فوضعوا قاعدة تسمح للإنسان باستعمال الأشياء المادية ما اقتضت الضرورة. يا لها فعلاً من مشورة حميدة! ولكنهم كانوا متزمتين إلى أقصى الحدود. كانوا يغلون الضمائر بإحكام أشد مما تتطلبه كلمة الرب – وهذا خطر عصيب. فالضرورة بالنسبة إليهم تعني الامتناع عن كل ما يمكن أن يستغنى عنه، وأصبح ذلك يعني – بحسب رأيهم – أن تندر إضافة أي طعام إطلاقًا إلى الخبز والماء. بيد أن بعضًا آخرين كانوا أضيق تشديدًا، فلقد سمعنا عن أحدهم الذي ألقى بكل ممتلكاته في البحر إذ اعتقد أنه، إن لم يدمرها تدمره لا محالة.

لكن الكثيرين اليوم، فيما هم يلتمسون حجة لإسراف رغبة الجسد في استعمال الماديات، وبينما هم يعبدون الطريق للإباحة وإطلاق العنان للأهواء والشهوات، يعتبرونه أمرًا مسلمًا به، لا أتنازل به لهم: وهو أن هذه الحرية ينبغي ألا يقيدها سوى ضمير كل إنسان فيستعملها بحسب ما يرى حلالاً له. كما أؤكد أن الضمائر ينبغي أن لا تقيدها، كما لا يمكن أن تقيدها أحكام أو صياغات تشريعية محددة لا زيادة فيها ولا نقصان، بل إنه بقدر ما يضع الكتاب المقدس من مبادئ عامة للاستعمال، ينبغي جديًا أن نحد الاستعمال بحسب تعليمها.

٢- المبدأ الرئيسي

ليكن هذا مبدأنا: استعمال عطايا الله لا يكون خطأ إذا سُخر للغاية التي عينها لنا الخالق نفسه، إذ أنه خلقها لخيرنا وليس لدمارنا. وعلى أساس ذلك لم يلتزم أحد بصراط أكثر استقامة ممن يثبت عزيمته صوب تلك الغاية. فالآن إذا تأملنا الغاية التي من أجلها خلق الله الطعام، نجد أنه لم يقصد به أن يشبع حاجتنا فحسب بل أن نتمتع ونتلذذ به أيضًا. وهكذا القصد من الملبس، ليس لضرورة كسائنا فقط، بل للوسامة والاحتشام أيضًا. كذلك الأعشاب والأشجار والثمار، إلى جانب فوائدها العديدة، تضفي جمال المنظر وروائحها الزكية (قارن تك٢: ٩). لأنه إن لم يكن هذا صحيحًا لم يكن للنبي أن يحسبها ضمن خيرات الله "وَخَمْرٍ تُفَرِّحُ قَلْبَ الإِنْسَانِ لإِلْمَاعِ وَجْهِهِ أَكْثَرَ مِنَ الزَّيْتِ وَخُبْزٍ يُسْنِدُ قَلْبَ الإِنْسَانِ" (مز١٠٤: ١٥). وإلا لما كان الكتاب يذكرنا مرارًا وتكرارًا بأفضال الله، وأن وهب للإنسان كل هذه للتمتع. كما أن الخصائص الطبيعية ذاتها للأشياء، تبرهن بما فيه الكفاية إلى أي حد ولأي قصد يحق لنا أن نتمتع بها. هل أغدق الله على الأزهار عظم جمالها الذي يبهج عيوننا، وحلاوة عطرها التي تداعب حاسة شمنا ومع ذلك يحرم على عيوننا أن تبتهج بجمالها، وعلى شمنا أن يستلطف عبقها؟ ماذا؟ ألم يميز أيضًا الألوان لكي يظهر بعضها أجمل من غيره؟ ماذا؟ ألم يضف إلى الذهب والفضة والعاج جمالاً يضعها في مصاف أثمن من غيرها من المعادن والحجارة؟ وفي كلمة: ألم يمنح الأشياء الكثيرة بهاءً يجذبنا إلى جانب استعمالها؟

[ليس لنا أن نستعمل هذه الأشياء بإسرافٍ، أو أن نسعى طامعين إلى الثراء، بل أن نخدم بحسب واجب دعوتنا ٣- ٦]

٣- نظرة إلى واهب العطية تمنع ضيق أفق الفكر والإفراط

دعونا، إذًا من تلك الفلسفة الإنسانية التي، فثما تسمح بالاستعمال الضروري للمخلوقات، لا تتوقف عند حرماننا على نحو مؤذٍ من الثمر المُباح من جود الله بل يستحيل تطبيقها إلا إذا جردت الإنسان من كل حواسه ومسخته حجرًا جمادًا.

ولكننا من جانب آخر، يجب أن نقاوم شهوة الجسد بلا أقل دأب وجهد متواصل، إذ إنها تطفح بلا حساب إن لم تنظم، وإذ لها - كما ذكرت آنفًا - حلفاؤها الذين ينادون بإطلاقها تحت شعار الحرية ويبيحون لها كل شيء. أولاً، هي تلجم إذا أدرك الإِنسان أن جميع الأشياء قد خلقت لأجلنا لكي نعترف بالخالق ونشكر لطفه نحونا. فأين عرفانك إذا أتخمت ذاتك بالولائم أو الخمور إلى أن تهذي أو تفقد صوابك، بحيث لا يمكنك أداء واجبات التقوى أو إتمام دعوتك؟ أين وعيك الله إذا تسربا جسدك من جراء الوفرة الزائدة الحدود، فتفعمه شهوة كريهة تدنس عقله بحيث لا يستطيع أن يميز ما هو قويم وشريف؟ أين هو شكرنا لله من أجل لباسنا، إن كنا من فرط ترف ملبسنا نتبهرج ونتباهى بنفوسنا ونحتقر الآخرين، أو إن كنا نتباهى بأناقتها وتِألقها ونعد ذواتنا لسلوك صفيق؟ أين اعترافنا بفضل الله إن ركزنا عقولنا على بهاء ثيابنا؟ حقًا الكثيرون يستعبدون أحاسيسه للملذات بحيث ترتبك العقول! وما أكثر الذين يبهرهم المرمر والذهب والصور بحيث يصبحون هم مرمرًا ويتحولون - إذا جاز القول - إلى معادن أو يصيرون كالتماثيل الملونة. وآخرون تخبلهم روائح الطهي بحيث لا يمكنهم أن يشتموا أي شيء روحي، وما إلى ذلك

من انغماس في أطايب الدنيا. لذا من الواضح أنه يجب وضع حد لاستباحة عطايا الله، وأن تؤيد القاعدة التي أرساها بولس: ألا نصنع تدبيرًا للجسد لأجل الشهوات (رو١٣: ١٤)، لأنه إن أفرطنا في الإذعان لها طال عنانها من دون أن تبلغها اليد.

٤- الطموح إلى الحياة الأبدية يضبط سلوكنا في هذه الحياة على النهج السوي

لا سبيل أضمن أو مسار أقصر من ذلك نتخذه من ازدراء الزمان الحاضر والتأمل في الخلود السماوي، فإنه من هذا تخرج قاعدتان: أولاً، إن من يستعملون هذا العالم ينبغي ألا يتأثروا به، وكأنهم لا يستعملونه، والذين يتزوجون كأنهم لم يتزوجوا، والذين يشترون كأنه لا يملكون، كما يعلم بولس (١كو٧: ٢٩- ٣١). والقاعدة الثانية، يجب أن يعرفوا كيف يتحملون الفقر مسالمين وصابرين، ويحتملون الوفرة باعتدال. فالذي يناشدك أن تستعمل هذا العالم كما لو كنت لا تستعمله، يقضى على إسرافك في شره الطعام والشراب، ونهم المائدة، والمبالغة في البناء والرداءٍ، والانفلات في الطموح والكبرياء والصلف والتأنق، كما يبيد عنك كل هم أو ميل بحق: "ثمة اهتمام عظيم بالملبس، فيما هنالك إهمال عظيم للفضيلة". ثمة حكمة عميقة في المثل القائل: حيثما انهمك الناس في الاهتمام بالجسد، تمادوا في معظم الأحوال في إهمال أرواحهم. لذلك، مع أنه ينبغي ألا تكبح حرية المؤمنين في الأمور الظاهرة بقيود محددة، من الضروري أن تخضع لهذه القاعدة: أن يقل انغماس الفرد بقدر الإمكان، بل على العكس، أن يحرص الإنسان بكل ما أوتي من حول وقوة ألا يستعرض ثراءً زائدًا، فضلاً

عن استباحة مشينة، وأن يسعى جاهدًا أن يحاذر من أن يحول ما وهب له من مساعدات إلى عثرات.

٥- الاقتصاد في الإنفاق: الممتلكات الزمنية ودائع مؤتمنة

أما القاعدة الثانية فهي: يتحتم على ذوي الموارد الضئيلة والمحدودة أن يعرفوا كيف يستغنون عن الأشياء بصبر، لئلا تنغصهم رغبة مفرطة في اقتنائها. إذا حافظوا على قاعدة الاعتدال هذه، فسوف يحرزون تقدمًا مرموقًا في مدرسة الرب. وعلى المقياس ذاته أيضًا. من لا يحرزوا نوعًا من التقدم في هذا المجال، فليس لديهم ما يثبت أنهم تلاميذ المسيح. فإلى جانب أن شهوة الأمور الزمنية ترافق معظم النقائص الأخرى، فإن ضعف الاحتمال للعوز يكشف عادة عن الداء المضاد عندما يكون في حالة من الرخاء. هذا ما أغنيه: إن من يستحي من ثياب وضيعة، سوف يتباهى بالملابس الباهظة الثمن، ومن لا يرتضى وجبة الكفاف سوف توجعه الرغبة في مائدة فاخرة، كما أنه سوف يُسرف في سوء استعمال الوفرة إذا يحجم عن التكبر إذا علا شأنه. إذًا نحو هذا الهدف، ليجتهد كل من يبتغي التقوى بنية صادقة، أن يتدرب على مثال الرسول كيف يشبع وكيف يجوع، وكيف يستفضل وكيف ينقص (في٤: ١٢).

الكتاب المقدس يقدم قاعدة ثالثة يضبط على أساسها استخدام الأشياء الأرضية، أشرنا إليها في الحديث عن تعاليم المحبة. تقضي تلك القاعدة بأن كل الأشياء قد وهبت لنا من فرط رأفة الله بقصد منفعتنا، وأنها قد أوكلت إلينا، وأن يومًا يأتي حين نعطي فيه حسابًا. وعلى أساس ذلك يجب علينا أن ننظم استعمالها بحيث يظل هذا القول يرن في آذاننا: "أعط حساب وكالتك" (لو١٦: ٢). وفي الوقت نفسه،

لنتذكر من الذي يطالبنا بأن نعطي هذا الحساب: إنه هو الذي أوصانا بالتعفف، وضبط الذات في تناول الطعام والشراب، والاقتصاد في الإنفاق، والاعتدال، وهو أيضًا من يمقت الإسراف والكبرياء والتباهي والغرور، هو الذي لا يقبل توزيعًا للخيرات إن لم يقترن بالمحبة، وهو الذي قد أدان بشفتيه كل المباهج التي تُبعد روح الإنسان عن الطهارة والعفة أو التي تغشى عقله.

٦- دعوة الرب أساس لسلوكنا

أخيرًا لنتذكر أن الرب يأمر –كلاً منا – أن نثبت أنظارنا في كل مجريات حياتنا على دعوته لنا. هذا لأنه يعرف عظم قدر الاضطراب الذي يتوقد في الطبيعة البشرية، ومقدار التقلب الذي يطيحها هنا وهناك، وكيف يجمح طموحها ليضم إلى حوزته أشياء متعددة في وقت واحد. لذلك عين لكل إنسان واجبات محددة يؤديها في طريقة حياته الخاصة، خشية أن ينقلب كل شيء رأسًا على عقب بسبب حماقتنا وطيشنا. ولكيلا يتجاوز أحد حدوده من جراء إغفال أو تهور، سمى تلك الطرق الحياتية "دعوات". لذلك دعي كل فرد إلى نوع معين من العمل كموقع حراسة، حتى لا يتيه طائشًا هنا وهنالك عبر الحياة. لذا أمسى هذا التمييز ضروريًا إذ على أساسه تقيم جميع أعمالنا في نظر الله. وغالبًا ما يختلف ذلك عن مقاييس حكم فلسفة العقل البشري ليس ثمة مل أعظم النبلاء، حتى في نظر الفلاسفة من أن يحرر أحدهم وطنه من الاستبداد. ومع هذا فإنه إذا وضع مواطن عاد يده على مستبد، يدينه علنًا القاضي السماوي (١صم ٢٤: ٧؛ ٢٦: ٩).

لن أسترسل بإطالة سرد الأمثلة يكفينا أن نعرف أن دعوة الرب لكل منا هي

في كل شيء بداية العمل الجيد وأساسه، وأنه إن كان هنالك من لا يوجه ذاته صوبها، فهذا لن يستطيع أبدًا أن يظل على النهج المستقيم في القيام بواجباته. فقد يستطيع أحيانًا أن يصطنع شيئًا يبدو في مظهره جديرًا بالثناء، ولكن مهما كان ذلك ممدوحًا في عيون البشر، فلن يكون مقبولاً أمام عرش الله. إلى جانب ذلك، لن يكون هنالك توافق بين جوانب الحياة المتعددة. لذلك سوف تتسق حياتك على أحسن حال عندما يوجهها هذا الهدف. لأن أحدًا مندفعًا بطيشه لم يجرب ما يتجاوز حدود دعوته، لأنه يعرف أنه من قبيل العصيان أن يتخطى تلك الحدود. رب أمرئ ذي مركز اجتماعي وضيع يقنع بأن يعيش حياته الخاصة بلا مضض، قابلاً ألا يهجر المنزلة التي عينها الله له. وأن يعرف المرء أن الله مرشده في كل أموره ففي ذلك ارتياح ليس بقليل من الهموم والمتاعب وكل ما يحمل من أثقال. فالقاضي يقوم بأعماله عن طيب خاطر، ورب البيت يلتزم بواجباته وسوف يحتمل كل إنسان أتعابه وحيرته وإعياءه وانشغال باله في مسيرة حياته، عندما يقتنع بأن الحمل الذي يثقله إنما وضعهم الله عليه. ومن ذلك تنبع تعزية مميزة، ألا وهي أنه ليس ثمة عمل دنيء أو حقير، بشرط أن تطيع دعوتك عند القيام به، إلى درجة أنه لن يتألق ويثمن إلى أبعد حد في نظر الله.